رسالة الجهاد

من الغزو والفتح إلى الجيش الوطني

نحو جهاد بصير... يرضاه الله ويحترمه العالم

رسالة الجهاد

من الغزو والفتح إلى الجيش الوطني

.....

نحو جهاد بصير.... يرضاه الله ويحترمه العالم

د.محمد حبش

وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ليكون الرسول عليكم شهيداً وتكونوا شهداء على الناس

قرآن كريم – الحج 78

يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين

قرآن كريم البقرة 209

الجهاد ماض إلى يوم القيامة، لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر

مسند أبي عوانة

ما أحب أن لي خلافة محمد وأنه يراق في ذلك محجمة دم

الحسن بن علي

والذي نفسي بيده لا تهريقوا محجمة دم إلا إزددتم بها من الله بعداً.

عبد الله بن سلام

من لي بسيف بصير إن ضربت به الظالم قطعه وإن ضربت به البريء لم يقطعه؟

سعد بن أبي وقاص

عاهدت حبيبي رسول الله أن أقاتل بسيف من خشب

أهبان بن صيفي

رسالة الجهاد

من الغزو والفتح إلى الجيش الوطني

.....

نحو جهاد بصير.... يرضاه الله ويحترمه العالم

تمهيد

الجهاد.... صدمة الواقع المرعبة

الجهاد في التطبيق النبوي:

- **تأسيس الجيش الإسلامي الأول**
- **تعزيز السلم ورفض الحرب في برنامج الرسول**
- **علاقة الأمة الإسلامية بالمجتمع الدولي**
- **دار الإسلام ودار الحرب**
- **آية السيف**
- **المستويات السبعة عشر في الجهاد**
- **معالم فقه الجهاد في الإسلام**
- **جهاد الدفع وجهاد الطلب**
- **الجهاد والفتنة**
- **أحكام الجهاد والصيال**
- **التكفير وهدر الدم**
- **من فتاوى التكفير**
- **الجهاد والفتوح... تبرر ولا تكرر**
- **جهود الخلفاء الراشدين في تطوير فقه الجهاد:**

الجهاد اليوم

- **السلفية الجهادية مصدر التشدد في تفسير الجهاد**
- **الحركات الجهادية في القرن العشرين**
- **الحركات الجهادية في القرن الجديد**
- **الاستبداد... واستدعاء النموذج الجهادي**

من جهاد الغزو إلى جهاد الجيش الوطني

- **الجهاد والجيش الوطني.... تشويه مزدوج**
- **الاتصال والانفصال بين الجهادي والوطني**
- **الجهاد اليوم.... جهاد رسول الله**
-

نهاية عصر الحرب وبدء عصر الإنسان

- **العالم يتخلى عن الحرب**
- **حق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة**
- **هل الحرب قدر الإنسانية اللازب؟؟ أما لها من آخر؟!**

تمهيد

ليست هذه الدراسة تحليلاً سياسياً في صعود وأفول الحركات الجهادية، فهذا ما تقوم به دراسات جيوبوليتيكية كثيرة، ولكنها جولة في الفقه الإسلامي لفهم جهود الفقهاء في تأصيل فقه الجهاد، والتحول به من حالة الحرب الدينية التي كانت سائدة في القرون الخالية إلى حالة الجيش الوطني الذي يلتزم معايير الشريعة السمحاء في أخلاقيات الحرب، ويقوم بواجبه في حماية الثغور وبالتالي يلتزم مبادئ حقوق الإنسان وقواعد المجتمع الدولي.

وتواجه هذه الدراسة بالطبع جيلاً مصدوماً من سلوكيات الجيوش الوطنية التي تحولت في كثير من البلدان العربية إلى أداة قمع وقهر في خدمة الاستبداد، أو أنها غرقت في الفساد والفوضى إلى حد لا يسمح بأي مقارنة بين الواقع المرفوض وبين رسالة الجيش الوطني الحديث الذي يحظى باحترام الناس وإكبارهم.

ومن جانب آخر فقد أصبح الجيل الجديد أيضاً غاضباً ناقماً من سلوكيات الدول الكبرى التي فشلت في تقديم تطورها الحضاري في إطار محترم مقنع، ولا زالت تعلن ان ما يحرك جيوشها هو مصالحها الدولية أكثر من الالتزام الأخلاقي برفع عناءالإنسان والمستضعفين في الأرض.

ومن مهمة هذه الدراسة أيضاً معالجة هذا الجفاء والقطيعة بين جمهور كبير من المسلمين وبين الأسرة الدولية، والتأكيد على أن الجهاد وفق تطبيق الرسول الكريم له لا يتعارض مع الدولة الحديثة، ولا القانون الدولي، بل يعتبر ملهماً في تأسيس قوانين العدالة الدولية وأخلاقيات الحرب

وفي الحقيقة فغن هذه الدراسة تؤكد أنه لا يمكن تكامل الجهاد مع الجيش الزطني إلا عبر عملية إصلاح جذرية لجيوشنا الوطنية على أساس إحياء قيم الجهاد النبوي وبالتالي أيضاً عبر تحرير ثقافتنا الجهادية من الغلو والتشدد الذي يقدم للعالم رسالة الجهاد على أنها محض غزو وفتح غاية المجاهدين فيه السماء ولا شأن لهم ببناء هذه الأرض أو باستقرارها.

وباختصار ... فهذه الرسالة موجهة أساساً للمسلم الذي يأمره القرآن بالجهاد، ويفرض عليه الواقع التشارك والتعايش، وهو في حيرة من أمره، لا يريد أن يعصي الله ولا يريد أن يخرج من الحياة.

الجهاد ... صدمة الواقع المرعبة

صدم العالم بمنطق الجهاد الذي قدمته الحركات الثورية الإسلامية خلال العقدين الأخيرين من الجماعات السلفيبة في الجزائر إلى طالبان في أفغانستان إلى المحاكم الاسلامية في الصومال وبوكو حرام في نيجيريا وأخيراً إلى داعش والفصائل الجهادية الأخرى في سوريا والعراق.

وتدريجياً تحولت الدراسات من قراءة لظاهرة سياسية إلى قراءة لعمق ايدلوجي في تطبيقات الجهاد في أصله وفهمه؟

لم يعد الأمر إذن يتعلق بفهم خاطئ مارسه تنظيم القاعدة المتشدد وتبرأت منه كل دوائر الفتوى في العالم الإسلامي، لقد تحول الأمر إلى إيديولوجيا مسكونة بالمظلومية، تتسلل في هشيم هذا العالم الإسلامي وتظهر في كل مكان وتضرب في الشرق والغرب من مانهاتن إلى لندن ومدريد وصولا إلى جزيرة بال في اندنوسيا، مروراً بكل عواصم العالم الإسلامي التي تبدو هدفا مشروعاً للجهاد.

وظهرت الصورة الأكثر تحدياً في المشرق العربي عندما أعلن تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا والعراق قيام الخلافة الإسلامية وأنها باقية وتتمدد، وبدأ على الفور خوض غزوات متتالية في الجهات الأربع وصار تهديداً حقيقياً لدمشق وبغداد وأربيل.

ولكن الجانب الأكثر إثارة وتهديداً كان في وصول الجهاديين من مختلف أنحاء العالم للمشاركة في الجهاد الجديد بنسخته الداعشية في سوريا والعراق، وإقدام هؤلاء المجاهدين على حرق مراكبهم جميعاً وحرق جوازاتهم وقطعهم العهود على حماية دولة الخلافة حتى النهاية، على الرغم من السماء التي غدت مزدحمة بطيران أمريكا والناتو الذي حصل على تفويض عربي ودولي بالضرب في المليان وعدم التوقف على الاطلاق حتى إبادة هذا النوع من الناس.

ووصل المئات من أبناء المجتمعات الغربية الذين أعلنوا إسلامهم في السنوات الأخيرة، بعيون زرقاء وشعور شقراء من نساء ورجال، للقتال ضمن مشروع داعش الجهادي، وكلهم ينتسبون إلى دول متقدمة تزدهر فيها حقوق الإنسان، وتتوفر فيها الرعاية والعناية والخدمات بشكل لا نظير له ولا يتوقع على الإطلاق أن يحصلوا في ظل النتظيم على جزء مما كانوا يحصلون عليه.

ولكن الأمر الأكثر دهشاً إنما كان في حجم الأدلة التي قدمها هؤلاء (المجاهدون) لإثبات صحة ما يقومون به من غزو وسلب وسبي ونهب ومصادرات وإبادات من أدلة الكتاب والسنة، وأقوال مدونة لكبار فقهاء الأمة.

ويمكن تحديد الجوانب المثيرة في هذا الجهاد الجديد في النقاط التالية:

- **الجهاد عنف إيديولوجي مباشر يهدف أن يكون الدين لله، وهو منفصل تماما عن تبرير القتال الحديث بالدفاع عن النفس أو حماية الأوطان أو رد العدوان.**
- **الجهاد ركن في الدين، وهو لون عبادة، يهاجر من أجله ويقاتل في سبيله.**
- **العالم داران: دار إسلام ودار كفر، وواجب الأمة الهجرة إلى دار الإسلام ثم النهوض إلى دار الكفر بالقتال حتى تخضع لأمر الله ويكون الدين كله لله.**
- **ولا يدخل في دار الإسلام إلا من عقد بيعة الجهاد، ومن سوى هؤلاء فليسوا من دار الإسلام في شيء ولو صلوا وصاموا وزعموا أنهم من المسلمين.**
- **المجموعات الجهادية تتبنى منطق نصرت بالرعب، وتقوم مباشرة بتصوير مشاهد القتل والذبح لإرعاب الأعداء وبالتالي للتمدد في الأرض وقتال الممتنعين من مختلف الأديان والمذاهب والطوائف والأمم.**
- **الجهاد مطلب إسلامي وهو شأن يتصل بالمسلمين في الدولة، ولا يحق للآخرين ممارسته ولا المشاركة فيه، ولا الحصاد من غنائمه.**
- **الجهاد يتبنى منطق: تقاتلونهم أو يسلمون، الإسلام أو السيف، وهناك استثناء خاص بأهل الكتاب من غير العرب، حيث يمكنهم أن يستمروا في حياتهم وفق ما تحدده لهم الدولة بشرط ان يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.**
- **الجهاد مسألة ترتبط بتنفيذ نصوص محكمة متينة لا مكان فيها للاجتهاد، وهي منفصلة تماماً عن القوانين الدولية وحقوق الإنسان والديمقراطيات التي لا تعدو كونها محادة لله، وكفراً بالشريعة، واتباعاً للطاغوت.**

وبدون أدنى شك فإن هذه المعايير التي اعتمدها تنظيم الدولة وطبقها عادت بأفدح الضرر على صورة الإسلام في العالم، ودفعت عشرات الدول المختلفة للتوحد بهدف القضاء على فكر كهذا بعد أن تأكدت فكرة هذا التنظيم وفق مبدأ باق ويتمدد، وما يعنيه ذلك من خطر على الأمن الإقليمي والدولي، وبالتالي فقد رفع هذا السلوك من حمى الاسلاموفوبيا وكراهية الإسلام في كل مكان في العالم الأمر الذي يتطلب جهوداً صادقة من الحكماء في العالم الإسلامي لتجاوز هذه التداعيات السيئة.

ولكن الأشد مرارة أن هذه التطبيقات لم تأت من فراغ وأنها في جانب كبير منها تطبيق لما كتبه فقهاء شهيرون في التاريخ الإسلامي دون التفات إلى مفاصد الإسلام في السلام والرحمة، ودون أدنى اعتبار لروح الشريعة الداعية إلى الدخول في السلم كافة.

وفي نظرة عجلى لمصدر هذه التطبيقات المؤلمة فإنني أختار لك هذا الفصل من كتاب الجهاد لواحد من أشهر فقهاء الحنابلة وهو الإمام موفق الدين بن قدامة القدسي في كتابه المغني، والاقتباس هنا بعبارات متتالية كافٍ لفهم المعنى كله، وبالمناسبة فالعبارات نفسها متكررة في كثير من كتب الفقهاء وللاسف لم نعثر على حركة تنويرية مباشرة مناوئه لهذا التفكير في العصور الذي كتبت فيها[1]:

النص	التعليق
الجهاد فرض على الكفاية اذا قام به قوم سقط عن الباقين، وأقل ما يفعل مرة في كل عام	الجهاد كتاب موقوت، وهو غاية بحد ذاته، وعمل تعبدي لا يتوقف على فهم أسبابه وظروفه.. ولا علاقة له إذن برد العدوان أو دفع الصيال
أمر الجهاد موكول إلى الامام واجتهاده ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك	قرار الحرب بيد الفرد، تكريس للاستبداد وإلغاء للشورى
غزو البحر أفضل من غزو البر	الجهاد بالمعايير السياحية وليس لغايات العدالة
وقتال أهل الكتاب أفضل من قتال غيرهم، يقاتل أهل الكتاب والمجوس ولا يدعون	وهدف الجهاد ديني وليس وطنياً أو إنسانياً، حتى الإنذار غير مطلوب، بل يمكن الإغارة عليهم بدون أي تفاوض لمجرد أنهم أهل كتاب
يقاتل أهل الكتاب والمجوس حتى يسلموا أو يعطوا الجزية	تأكيد الهدف الإيديولوجي للحرب، وربط نهاية الحرب بإكراه الناس على اعتناق الإسلام أو احتيار الذل والصغار، يجب إجبارهم على دفع الجزية وهو صاغرون
يغزى مع كل بر وفاجر	المتغلب الانقلابي هو صاحب الحق في راية الجهاد، سواء كان طيباً أو شريراً، والمؤهل المطلوب لقيادة الجيش هو المتغلب سواء كان براً أو فاجراً
يقاتل كل قوم من يليهم من العدو	قرار إعلان الحرب لا اختصاص له..... بإمكان كل مختار أو والي إعلان الحرب في حدود ما يحكم
ومن استرقَّ منهم فهو كسائر الغنيمة يخمس ثم يقسم	والإنسان محض غنيمة للمحاربين كسائر الغنيمة

[1] سائر هذه النصوص في الجدول مأخوذة من كتاب المغني لابن قدامة أشهر كتب المذهب الحنبلي، في فصل كتاب الجهاد ج10 ص 359 وما بعدها

أربعة أخماسه بين الغانمين لا نعلم في هذا خلافا	تقسم بين المحاربين بعد أن يأخذ الإمام خمس الغنائم
حكم الأسرى من أهل الكتاب والمجوس وغيرهم: وإنما يكون له استرقاقهم إذا كانوا من أهل الكتاب أو مجوسا فأما ما سوى هؤلاء من العدو فلا يقبل من بالغي رجالهم إلا الاسلام أو السيف أو الفداء	وهذا خلاف ظاهر القرآن الكريم الذي نص في سورة محمد في شأن الأسرى: فإما منّاً بعد وإما فداء. فحصر مآلهم بين المن والفداء ولم يأذن بقتلهم أو استرقاقهم. وهو أيضاً خلاف النص القرآني في الإحسان للأسير: ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. وكأن الاسترقاق منة أو فضيلة فلا يجوز منحه إلا لأهل الكتاب، أما الآخرون فليسوا أهلاً للاسترقاق بل يجب قتلهم أو فداؤهم.. الإسلام أو السيف.. ولا تقبل منهم الجزية. والكارثة أنهم يعدون طوائف المسلمين المنتشرة في بلاد الشام من هؤلاء: النصيرية والدروز واليزيدية والاسماعيلية فهم عندهم ليسوا مسلمين ولا أهل كتاب، ولا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف.
النساء والصبيان يصيرون رقيقا بالسبي	يصيرون رقيقاً يتمتع به المحاربون، ولا توجد أدنى عبارة تلطف هذا السلوك اللا أخلاقي، ولا توجد أدنى إشارة للجانب اللاإنساني في هذه المعاملة المتوحشة، ولا توجد أدنى إشارة إلى معارضة هذا التصرف معارضة تامة لقول الله تعالى: ولا تزر وازرة ور أخرى.
يجوز سلب القتلى وتركهم عراة	وهو مخالف بالمطلق لآداب الإسلام في احترام الروح الإنسانية، وتأكيد لشريعة السلب والنهب التي كانت أكبر جرائم الجاهلية والتي جاء الإسلامي لمحاربتها.
والغنيمة لمن حضر الواقعة	وهذا تأكيد لسلوك المنافقين الذين قال الله تعالى عنهم: سيقول المخلفون من الأعراب إذا انطلقتم

	إلى مغانم كثيرة لتأخذوها ذرونا نتبعكم
وإن وجد في أرضهم ركازا فان كان في موضع يقدر عليه بنفسه فهو كما لو وجده في دار الاسلام: فيه الخمس وباقيه له وإن قدر عليه بجماعة المسلمين فهو غنيمة	الثروات والكنوز والمتاحف تقسم كسائر الغنائم أربعة أخماس للمحاربين وخمس للإمام، وهذا خلاف العدالة وخلاف هدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رفض قسمة الغنائم على الفاتحين

ولا يملك المرء إلا أن يأخذه العجب كيف تقبل الإنسان قوانين كهذه للحرب، وكيف يعتبرها طاعة لله ورسوله، على الرغم من الاستهتار البالغ بالحياة، والإهمال التام للقيم الإنسانية والاجتماعية.

ويبقى السؤال هنا هل كانت هذه هي بالفعل سياسة الرسول الكريم في الجهاد؟ وهل يعتبر هذا التطور الفقهي سياقاً تاريخياً طبيعياً في فهم النص أم انقلاباً عليه؟

الجهاد في التطبيق النبوي

تعتبر سيرة النبي الكريم أفضل سبيل لفهم رؤيته وموقفه من الجهاد وتطبيقه له في الظروف المختلفة، ولا شك أن ما روي في جهاده الكريم يعتبر كافياً لرسم ملامح الجهاد كما هو في التكليف الشرعي الأول.

ومن المؤكد أن النبي الكريم لم يمارس أي لون من الجهاد المسلح ضد أخصامه خلال وجوده بمكة المكرمة وهي فترة تزيد عن نصف عمر الاسلام، والروايات متضافرة بأنه لم يقبل من أصحابه أي توجه نحو العنف، بل لم يأذن لهم في الرد المسلح على خصومهم، وأمام عينيه كان يعذب فقراء آل ياسر وثويبة وخباب بن الأرت وبلال بن رباح، ولكنه كان يكتفي بالقول: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة، وهناك آيات كثيرة أجمع المفسرون أنها نزلت في بيان ما يجب فعله لمواجهة اعتداءات المشركين واضطهاداتهم ولكن شيئاً لم يتغير، وظل الاضطهاد مستمراً وظل الجواب واحداً : الصبر الصبر....

- **قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون**
- **واهجرهم هجرا جميلاً**
- **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مسلمين**
- **فأعرض عنهم وقل سلام فسوف يعلمون**
- **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**

وهناك اتفاق بين الفقهاء على هذا، وهو أن العهد المكي لم يكن عهد جهاد وأن الجهاد من شأن العهد المدني، ولكن تقدير المرحلتين عند الجهاديين يتخذ طابعاً زمنياً أصم، فيتم احتساب ثلاث عشرة سنة من عمر التنظيم فترة مكية ليشرع بعد ذلك بالعهد المدني من القتال والجهاد لإقامة

الدولة، ويبدو التنظيم الذي بلغ ثلاثة عشر عاماً من قيامه متقاعساً عن حكم الله في الجهاد ما لم يبدأ من فوره بالقتال ضد آخرين.

والحقيقة أن الأمر مختلف أشد الاختلاف، وأن الزمن لا معنى له بمعزل عن الظروف، فقد قام الرسول بحظر القتال بشكل صارم طالما كان المسلمون أفرادا أو كتلة في مجتمع، ولم يأذن الشرع بالقتال إلا عندما تحولت الكتلة إلى دولة مستقلة يجب عليها الدفاع عن وجودها الوطني، أما التطبيق الأصم للفترة الزمنية المقدرة فإنه يحول المجتمع إلى مجرد روبوتات تنفذ معايير صماء لا تدل على شيء، فلا معنى للزمن بمعزل عن الحدث والإنجاز، وللأسف فإن كثيرا من الحركات الاسلامية فهمت العهد المكي والعهد المدني كما لو كانت فصولاً تحكمها قوانين الشروق والغروب، ومطالع الشمس ومنازل القمر، والحقيقة أن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك، وبدلاً من الفهم الأصم لواقع أن عمر دولة الإسلام هو ثلاثة عشرة سنة بدون قتال وعشر سنوات من الجهاد، فإنه يجب المصير إلى القسمة المقاصدية الحقيقية الواقعية وهي العمل السلمي في إطار الأفراد والجماعات حتى قيام الدولة، وبعد قيام الدولة يتعين تأسيس جيش وطني.

باختصار قيام الدولة أولاً بنضال دعوي وحواري سلمي ومن ثم التحول إلى المسؤولية العسكرية في بناء الجيش، فالدولة هي من ياتي بالجيش وليس الجيش هو من يأتي بالدولة.

تأسيس الجيش الإسلامي الأول:

من المدهش أن الرسول الكريم نجح في إقامة دولته في المدنية المنورة دون إراقة قطرة دم واحدة، ودون خروج نازح واحد من المدينة، لقد كان هذا عملاً مذهلاً في عصر لم تكن تجري التحولات إلا على أساس من الغلبة وأثمان باهظة من الدماء.

بالفعل إن الوصول إلى حكم المدينة كان في الواقع نضالاً ديمقراطيا طويلاً استمر ثلاث سنوات وبدأ مع وفد الخزرج الأوائل الذين عادوا في العقبة التالية ليصحبهم مصعب بن عمير في مهمة رسالية سلمية في يثرب، ويعود في العام التالي مع وفد الخزرج والأوس الذي ضم اثنين وسبعين رجلا وامرأتين، وفي العقبة الثانية تم اتخاذ قرار الهجرة وأخذت من المشاركين البيعة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمره وعلى أثرة منا.

ويروي المؤرخون وكتاب السير عادة قصة الهجرة على أساس تراث من العجائب، فقد دبروا أمرهم بليل أن يضربوه بأسيافهم الأربعين حتى يضيع دمه بين القبائل، وعلى الفور فقد أخبره الوحي بما يمكرون، وكان قد ادخر الصديق صاحباً فواعده يليل وخرجا من خوخة في الدار، وألقيت الغشاوة على الساهرين الراصدين حول بيت الرسول، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون، وعششت الحمام والعنكبوت على غار ثور، وحين أوشكوا أن يدخلوا الغار شق صدر الغار فإذا بحر وسفينة ومركب، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم، ثم غاضت فرسا سراقة بن مالك بن جعشم وهو يطارد الرسول، ثم فاض اللبن في ثدي الغنم في خيمة

أم معبد، وفي النهاية وصل المهاجرون إلى المدينة المنورة وصاح راصد المدينة يا بني قيلة هذا جدكم قد جاء، وأقبلت نساء بني النجار وغنوا قصيدتهم الشهيرة: طلع البدرعلينا من ثنيات الوداع، وجب الشكر علينا ما دعا لله راع.

ولا بأس أن تروى هذه الحكايا ما صح منها وما لم يصح على سبيل المحبة والإعجاب بمقامه صلى الله عليه وسلم، فالتراث الإنساني يعرف هذا ويتقبله، وتروي الأمم أخبار أنبيائها وعظمائها على أتم حال من الدهش، ولا مراء، وهذا شأن المحبين ودأب العاشقين، ولا يلام الرجل في حب نبيه والفرح بتاريخه.

ولكن القراءة السياسية لقيام دولة المدينة تتطلب أن نستعمل لغة أخرى في البيان والوصف لما جرى خلال شهر نيسان من عام 622 ميلادية، حيث كانت بلاد العرب لا تزال تعيش عصر ما قبل الدولة، وكانت الجزيرة العربية محكومة بنفوذ رجال القبائل، وكانت مكة الحاضرة الأكثر قداسة في جزيرة العرب لا تعرف شكل الدولة، بل كانت تحكمها سلسلة من العادات والقيود ومراكز النفوذ.

وكان أول من أسس دولة حقيقية في مكة القرن الرابع الميلادي هو قصي بن كلاب الجد السادس النبي الكريم، حيث قاد ثورة شعبية للخلاص من حكم خزاعة، وتوحدت قريش خلف قيادته، وجمعت له المآثر السيادية الستة وهي السقاية والرفادة والسدانة والحجابة والندوة واللواء.

وقد اقتسم بنوه هذه المآثر من بعده بين عبد الدار وعبد شمس وابنه أمية وعبد مناف وابنه هاشم، ووقع الصراع بين بني عبد الدار وأمية وهاشم، وللأسف لم ينطفئ حتى بعد الإسلام، واستمر دامياً مريراً وانفجر أيام الجمل وصفين وكربلاء، ومحطات كثيرة في التاريخ أبرزها الحرب العثمانية الصفوية، ولكن أعجب أحواله أنه انتفض هذه الأيام جذعاً هائجاً وظهرت أبشع مظاهره في صيحة المالكي التي قال فيها إننا نستأنف اليوم يوم كربلاء ونقاتل بشعار يا لثارات الحسين!!!

وبالعودة إلى التجربة النبوية الكريمة، فقد أمضى الرسول الكريم ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى الله في مكة، ولم يتمكن من تحقيق تغيير سلمي في مكة، ولم تتقبل مكة مشروعه ورسالته، وتبين لقريش أن رسالته مبنية على التوحيد وأنها حرب على الأصنام، ولا شك أن ذلك سيهدم أكبر موارد الاقتصاد القرشي، وهو القائم اقتصاديا وسياسيا على مبدأ الخضوع للبيت الحرام، واقتسام النفوذ بين سدنة الآلهة المعبودة هناك.

خلال عشر سنوات من العمل المستمر في مكة تأكد الرسول أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأن عليه أن لا يبتئس بما يضنعون، وراح يفكر في بناء كيان سياسي سلمي في أي مدينة ممكنة.

وفي هذا السياق كانت هجرة الأصحاب إلى الحبشة وهجرة الرسول إلى الطائف ومحاولات الهجرة إلى الحيرة، وقد واجهت هذه المحاولات مصاعب كثيرة معروفة في كتب السير، وفي النهاية بدت يثرب القرية الوادعة في الحجاز أكثر المدن واقعية لتبدأ فيها رسالة الإسلام عبر نضال سلمي طويل.

لا يوجد ما يدعو للحرج في رواية قيام الدولة الإسلامية الأولى، لقد كان جهاداً سلمياً رائعاً، لغته الحوار والإقناع والحجة، ولا شك أن ما جمع أهل المدينة على الرسالة الجديدة كان واقعيتها، وقدرتها على إنهاء تسلط اليهود الامبريالي على المدينة آنذاك، واستلالها العصا الدينية الغليظة التي كانت يهود ترهب بها الناس، حيث يقول قائلهم: يوشك أن يبعث نبي آخر الزمان فنقاتلكم به ونقتلكم قتل عاد وإرم.

إن الحديث عن فترة مكية وفترة مدنية مشهور عند الحركات الإسلامية ولكنها تفهم الزمن فيه فهماً أصم، وحين تنقضي ثلاثة عشر عاما من العمل السلمي فإنها تأذن لنفسها بالتوجه للعمل العسكري لإخضاع الناس للرسالة، وهنا يكون الجهاد والقتال هو السبيل المناسب لإقناع الناس بالإسلام وإلزامهم بمبادئه.

وحتى هذا الرأي في تبرير القتال بعد ثلاثة عشر عاماً يبدو أسهل من رأي جماعات الجهاد الإسلامي الالجديدة التي ترى أن العهد المكي قد تم إنجازه عبر الدعوة التي قام بها الرسول وبلغات العالم ولم يعد أمامنا إلا مواجهة الممتنعين بواحد من اثنين: الإسلام أو السيف!![2]

وأجزم تماماً بأن رسول الله لو لم يحقق نجاحه في المدينة لاستمر في دعوته السلمية، ولن يسمح لمسلم واحد أن يحمل السلاح، ولاستمر في الانكار على سعد وعمر وحمزة الذين دفعهم حماسهم لبعض المناوشات مع المشركين، وأجزم أنه لن يأذن أبداً في قيام أي قوة مسلحة خارج إطار الدولة وسيستمر كرسالة المسيح رسالة موعظة وهداية لا مكان للسلاح فيها.

إن السلاح من مستلزمات الدولة وليس من مستلزمات النبوة، وقيام الدولة هو الذي فرض قيام جيش، وليس العكس، الدولة هي التي تنشئ الجيش وليس الجيش هو الذي ينشئ الدولة.

إنني لا أزعم أن هذه القاعدة اطردت في التاريخ فهناك دول كثيرة قامت بالسيف واستمرت بالسيف، وبعض هذه الدول الاسلامية تحولت الى خلافة وسلطان، ولكنني أملك القول بيقين إن دولة الرسول الكريم لم تكن كذلك... إنها كانت دولة حوار وبرهان رضيها غالب أهل المدينة، ودخلوا في الإسلام راغبين، وقاموا بعد ذلك مشتركين ببناء الدولة.

لا يشبه هذا الفهم على الإطلاق فهم الحركات الإسلامية المسلحة، التي تختار قراءة التاريخ منكوساً، وتعتبر أن كل ما ورد في أمر الحوار والحجة والبرهان منسوخاً، وأن آية السيف نسخت سبعين آية، ولم يعد في الأفق سبب للعمل بآيات الغفران والتسامح بعد أن انتشرت كلمة الإسلام وعرف الناس أن الله فرض عليهم اتباع دين محدد، وأن العاقبة هي بلا ريب الهلاك للمستكبرين.

---

[2] للأسف فقد ذهب الحنابلة وفقهاء كثير إلى أن أهل الكتاب والمجوس يقاتلون ولا يدعون إلى الإسلام وحكمهم السيف أو الجزية.... انظر المغني لابن قدامة ج 10 ث 379

ويتذرع عادة أصحاب الإسلام المسلح بالعناء الذي يواجهون، وبطش الحكومات المستبدة، ولن نكون أبداً إلى جانب الاستبداد بعد أن عانينا منه الأمرين وذقنا مراراته في الكارثة السورية الأليمة، ولكنني مصر في بدء هذاالبحث وفي خاتمته أن العنف ليس حلاً وأن تطبيق قاعدة العين بالعين سيجعل الجميع عمياناً، والنبي الكريم الذي نقتدي به في كل حال، واجه ذلك العناء وأشد منه وقتل أصحابه بين يديه، ولم يكن ليأذن أبداً بقيام كيانات مسلحة خارج سلطان الدولة، مع أنه لم يكن أصلاً يعيش في دولة، بل شبه دولة، وربما حكم قبيلة، ومع ذلك فقد اعتبر أن هذا المتحد السياسي والاجتماعي يشكل نظاماً ما لا يجوز العمل العسكري في غير سياقه، واستمر في خطابه السلمي، ودعا إلى الصبر والصفح والغفران، حتى إذا أقام دولته بكفاحه السلمي دعا الناس إلى الاسهام في اعداد جيش وطني حقيقي يقوم بحماية الأمة ومطاردة أعدائها.

وهكذا نستطيع أن نجزم بأن الجيش الإسلامي تأسس بعد قيام الدولة وليس قبل قيام الدولة، فالدولة هي التي تؤسس الجيش وليس الجيش هو الذي يؤسس للدولة.

تعزيز السلم ورفض الحرب في برنامج الرسول:

وبعد وصوله إلى المدينة المنورة وبيعة الناس له إماما وقائداً، نهضت في وجهه مسؤوليات حقيقية من حماية الأمن وقيام العدالة التي لا يمكن أن تكون بدون ظهير من القوة والسلطان.

وخلال قيادته للدولة الإسلامية التي استمرت عشرة أعوام يمكننا رصد واقع الجهاد من خلال متابعة أحداث السيرة النبوية كما دونها كبار الرواة ابن إسحق وابن هشام وابن سعد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن وابن كثير والذهبي وغيرهم من أئمة السيرة النبوية الكريمة.

فقد خرج في غزوات كثيرة ليعزز المواثيق والصلح مع جيرانه من زعماء القبائل العربية، ولكن هذه الجهود السلمية الحكيمة تم ادراجها في كتب السير تحت عنوان غزوات، غزوة بدر الأولى وغزوة السويق وغزوة ودان وغزوة العشيرة وغزوة عمرة القضاء وغزوة الحديبية، وفي الواقع فلم يقع في هذه الغزوات أي قتال ولا اشتباك، بل كانت مفاوضات مع جيران الدولة الإسلامية، انتهت بتوقيع عقود واتفاقات صلح وموادعة، ولكن هذه الدبلوماسية النبوية الحكيمة تم فهمها بطريقة خاطئة وتم إطلاق اسم الغزوة على كل خروج خرج فيه النبي من المدينة، مع أنه من أصل سبع وعشرين غزوة دونها كتاب السير فإن الاشتباك المسلح قد وقع في ست منها فيما كانت اللقاءات الأخرى تنتهي جميعاً بالمصالحة والوئام.

وفي سياق السرايا التي أرسلها وهي 32 سرية فإن التحقيق سيقدم لك النتيجة نفسها وهي أن كثيرا من السرايا لم تكن بهدف الحرب، ولكم تكن الحرب في هدفها ولا في وقائعها، وإنما كانت سفارات قام بها رجال الرسول من أجل تحقيق مصالح الدولة الناشئة.

أما الالتحام الذي جرى بينه وبين أعدائه فلم يكن في الواقع إلا الدفاع المشروع عن النفس، ومن العجيب أن هذا الدفاع المشروع عن النفس ظل حراماً على المسلمين خمسة عشر عاماً من عمر الإسلام، ولم يكن مسموحاً لهم حتى الدفاع المشروع عن النفس، وذلك في موقف فريد يعكس وعي النبي الكريم بالجانب السياسي والأصول الاجتماعية، فمن غير الوارد أن يخول الأفراد تحصيل حقوقهم بأيديهم عن طريق العنف، وهو بالتأكيد يرسم ظلال شريعة الغاب، وهكذا فقد ظل استخدام القوة حراماً حتى في إطار الدفاع عن النفس إلى أن أسس النبي الكريم دولته وجيشه وعند ذلك شرع القتال، وباستعراض سريع لغزواته فإن الأيام التي حصل فيها التحام بين النبي وخصمائه لا تتعدى ستة أيام وهي تحديداً أيام بدر وأحد والمصطلق وخيبر وحنين، وهناك كلام عن يوم قريظة.

وفي استعراض متعجل لظروف الغزو القتالية التي وقعت خلال حياة الرسول نجد أن غزوة بدر وقعت عند ماء بدر وهو موقع يقع شرق المدينة، يبعد عن مكة أكثر من ثلاثمائة كيلومتر وقد سارت إليها قريش بخيلائها وجبروتها لمحاربة النبي الكريم، في رمضان من السنة الثانية للهجرة وواضح حجم إرادة العدوان التي كانت تغلي في نفوس قريش وهم يقطعون هذه الفيافي أياماً عدداً من أجل أن يقضوا على الرسول والرسالة.

أما أحد فإنها وقعت داخل ارض المدينة شوال عام ثلاثة للهجرة، حيث سارت قريش لمحاربة النبي الكريم أكثر من أربعمائة وعشرين كيلومتر، واحتار النبي الكريم أن يبقى داخل المدينة يدافع عنها، ولكنه استجاب لحماس الشباب الذين طالبوا بالخروج وخرج إلى جبل أحد على بعد ستة كيلومترات من المدينة ليواجه ثلاثة آلاف محارب جاؤوا كل هذه المسافة البعيدة ليقاتلوه ويثأروا لقتلاهم يوم بدر.

أما يوم الخندق فهو أوضح الأيام دلالة على تشوف النبي للسلام وعدم رغبته بخوض الحرب، وإصراره على حقن دماء الظرفين، حيث أمر بحفر الخندق حول المدينة وهي مكيدة لم تكن تعرفها العرب، وهي تتناقض مع العنترية العربية في البروز للمقاتلين والإقدام في ساح الوغى وعدم الاختباء، ولكن الرسول الطريم كان سعيداً بخياره ذاك، وظل يستمع بأذنيه استفزاز فرسان قريش أربعين يوماً حول الخندق ولكنه لم يشأ أن يأذن بأي قطرة دم تراق هناك وظل صامتاً خلف خندقه!!

كان فرسان قريش وغطفان ينادونه من وراء الخندق: يا محمد! أليس تزعم أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار؟ فاخرج إلينا!

ولكنه ظل صامتاً خلف خندقه ينهاهم أن يجيبوهم بشيء!!

وفي مزيد من التحدي والاستفزاز يقفز عدد من فرسان قريش عبر الخندق ويقف عمرو بن ود العامري يومذاك يتحدى قائلاً:

ولقد بححت من النداء لجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المناجز موقف القرن المناجز
إن الشهامة في الفتى والجود من خير الغرائز

وفي جانب آخر من المعركة وقف ابن الزبعرى شاعر قريش يقول:

شهرا وعشرا قاهرين محمدا وصحابه في الحرب خير صحاب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتلى لطير سغب وذئاب

ومن كلام كعب بن زهير:

فأحجرناهم شهراً كريتاً وكنا فوقهم كالقاهرينا
نراوحهم ونغدو كل يوم عليهم بالسلاح مدججينا
بأيدينا صوارم مرهفات نقد بها المفارق والشؤونا
فلولا خندق كانوا عليهم لدمرنا عليهم أجمعينا
ولكن حال دونهم وكانوا به من خوفنا متعوذينا[3]

وهكذا كانت رغبته العارمة بالسلم تمسك عليه أنفاسه فلا يستجيب لاستفزازهم في شيء.

واستمر في صبره وأناته حتى نفذ صبرهم وإنما النصر صبر ساعة، ورحلوا إلى بلادهم، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً.

وقد اعتاد المؤرخون أن يوردوا بعد الخندق قصة يهود بني قريظة الذين تآمر بعضهم ععلى القتال مع قريش ضد المدينة، وقد اقتص منهم الرسول الكريم.

ويجب أن نشير هنا إلى أن كتاب السير يبالغون إلى الغاية في وصف القصاص، ويشيرون إلى تسعمائة قتيل جمعوا في بيت واحد وأعدموا جميعاً، وفي الواقع لقد قمت يدراسة إسنادية لهذه الواقعة، وتبين مبالغة المؤرخين في تفاصيلها وأرقامها بما يسيء للنبي الكريم، والواقع أن العدد الذي تمت معاقبته لا يزيد عن أقراد قلائل ثبت أنهم قاتلوا مع قريش وتواطؤوا معها، ولم تمتد يد القصاص إلا إلى ذي ذنب مبين.

وحين ولى جيش الخندق نظر الرسول الكريم في أعقابهم وبدأ من فوره يعد العدة لمرحلة سلام وأمن بينه وبين قريش، وخلال عام واحد وصل الحديبية بألف وأربعمائة من أصحابه بثياب الإحرام البيضاء في إرادة صلح وحوار، وعلى الرغم من صدود قريش واستفزازها واستكبارها ولكنه نجح في ذي القعدة عام ستة للهجرة في توقيع أول عقد مهادنة وسلام، وسط سخط شديد من أصحابه الذين رأوه صلحاً مهينا، يمنعهم من الوصول للحرم، يفرض عليهم السماح للمرتدين بمغادرة المدينة، ويجبرهم أن يسلموا من جاءهم مسلماً... وحينها قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله: ألسنا على الحق؟؟؟ ليسوا على الباطل؟؟؟ فعلام نرضى الدنية في ديننا، ولكن الرسول الكريم

[3] سيرة ابن هشام ج2 ص 254 والأخبار نفسها قد وردت في سيرة ابن كثير والروض الأنف في موضعها من شعر الخندق

تمسك بالصلح الذي جاء وفق مبادئه في السلام والمصالحة، ومضى عائداً إلى المدينة، ونزل عليه قول الله تعالى: إنا فتحنا عليك فتحاً مبيناً.

ويمكن رصد مواقف كثيرة كان الرسول الكريم فيها بقدم حقن الدماء على أي هدف آخر، وليس من شرط هذه الدراسة استيفاء ذلك ولكن يمكن أنرى تفاصيل كثيرة في هذا المعنى في يوم صلح الحديبية ويوم عمرة القضاء ويوم فتح مكة وهي أيام الإسلام المجيدة التي تكللت بغار النصر دون إراقة الدماء.

وقد لخص النبي الكريم موقفه هذا يوم الحديبية، عندما كان في طريقه إلى البيت الحرام لأداءالعمرة، وجاءه بشر بن سفيان الكعبي يخبره بأن قريشاً قررت منعه من الدخول إلى الحرم، وقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم!!!

نظر حزيناً إلى الأفق البعيد، لقد كانت الكلمات تحمل ألف سبب للإثارة والغضب والكبرياء، فقريش تسمح لكل قبائل العرب أن تدخل مكة بأوثانها وأصنامها، عراة أو مسربلين، ولكنها تمنع محمداً ابن مكة، وابن هاشم أن يدخلها بثياب إحرامه؟؟!!

ولكنه لم يشا أبداً أن يهب في هوى الحرب التي يريدون، ثم قال: يا ويح قريش... لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة!![4]

وفي إرادة حازمة لتجنب الحرب وإراقة الدماء قال لأصحابه: من رجل يخرج بنا على غير طريقهم!! فقال رجل من أسلم أنا يا رسول الله... فسلك بهم طريقا وعرا أجرل بين شعاب.. ثم قال: إنها والله الحطة التي أمر الله بها بني إسرائيل فلم يقبلوها....

وقد وقع القتال في يوم المصطلق في السنة السابعة، أو في الخامسةعلى خلاف بين المؤرخين، وكانت المعركة في مواجهة فريق من خزاعة يعد للحرب على المدينة، وقد ذكر ابن هشام أن القتلى كانوا ثلاثة من المشركين وواحداً من المسلمين.[5] فيما ذكر ابن كثير أن القتلى كانوا عشرة.[6]

ويوم حنين في السنة الثامنة وقعت حين حشدت ثقفيف وهوازن أربعين ألفاً لاجتياح مكة بعد أن فتحها الرسول الكريم وكانت معركة دفاع واضحة على تخوم مكة في وادي حنين، ووقع التحام عنيف بين الفريقين وذكر ابن إسحق أن القتلى كانوا نحو سبعين رجلاً، وفي الرقم مبالغة واضحة

---

[4] سيرة ابن كثير ج3 ص 312

[5] سيرة ابن هشام ج3 ص 228

[6] سيرة ابن كثير ج3 ص226

حيث لم يذكر من قتلى المسلمين إلا أربعة، وقد انتهت الحرب بالموادعة والمصالحة وإطلاق السبايا والأسرى. [7]

أما خيبر فقد كانت مواجهة ضرورية مع اليهود الذين تجمعوا في خيبر شمال المدينة وتأكد تحالفهم مع قريش في جنوبها وهو خطر مؤكد لا يمكن لدولة تريد السلم والأمن أن تنام عليه، وبعد صلح الحديبية خرج الرسول من فوره لإنهاء هذا الوضع الشاذ، وحاصر خيبر وكان جملة من قتل فيها من يهود 93 ومن الصحابة ستة عشر، وهي أكثر المعارك إثخاناً في حياة الرسول.

ولا بد أيضاً من الإشارة إلى فتح مكة وجهد النبي الكريم في منع الحرب، ومواجهة سبل إشعالها، وذلك نعزيزاً لثقافة السلم في الإسلأم وهي الثقافة التي تسمح بتكريس يوم فتح مكة يوما للإخاء الإنساني:

وكان قرار فتح مكة قد اتخذ قبل عامين اثنين، في أعقاب فشل قريش في اقتحام المدينة يوم الخندق، وبعد انتهاء معركة الخندق بأقل من شهرين كان النبي الكريم قد قضى على بني قريظة ودك معاقل خيبر وبذلك قطع الأحلاف عن قريش وأصبح قادراً على اقتحام مكة.

وحين نقضت قريش صلح الحديبية وقتلت عدداً من حلفاء النبي الكريم من بني خزاعة في مكة، استكمل الرسول الكريم الشروط القانونية لإعلان الحرب على قريش واجتياح مكة، ولو فعل لكان ظافراً منصوراً ولحظي بتعاطف كبير من القبائل العربية التي علمت بنقض قريش لصلح الحديبية،

حين تحرك صوب مكة كان معه عشرة آلاف مقاتل، ولكنه لم يشأ أن تراق قطرة دم واحدة في يوم الفتح الأعظم!!

كان من الممكن أن يعلنها غضبة مضرية تهتك حجاب الشمس أو تمطر الدما وأن يتحرك بجيشه الكبير هادراً ثائراً حتى يطوق مكة من شعبها الأربع، وأن يفعل بها ما فعله الفاتحون من قبل، وأن تغلي كتائبه بنشيد الثورة والنصر وأن يقرع طبول المعركة ليسجل في التاريخ ملحمته الظافرة يوم الفتح الأعظم!!

لكنه لم يفعل، لقد مشى بصمت ووراءه رجاله ولم يكن قد أخبر الناس بوجهته التي يريد، وتحرك صوب الشام حتى تحير الأصحاب في مراده وغايته، وبعد مسافة طويلة طوق الجيش برجاله ثم أخبرهم بقرار الفتح الأعظم.

كان يقول اللهم عم الأخبار عن قريش حتى نفجأها في دارها، وبسرعة انساح في الصحراء يناهب الزمن حتى أطل على مكة من شعبها الأربع بجيش عرمرم لا قبل لأحد بمواجهته.

كان يريد أبا سفيان، إنه رأس قريش وزعيمها المطاع والمطلوب أن يساعد في فتح آمن لا تراق فيه الدماء ، وبخطة حكيمة تمكن بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام من استدراجه إلى معسكر النبي

7

الكريم، وهناك وقع أسيراً بلا عقد ولا عهد وكان بالإمكان تصفيته كأسير محارب لله ورسوله ولكن النبي الكريم أكرمه وعفا عنه ونادى في الناس من دخل دار أبي سفيان فهو آمن!!

وهكذا تحول أبو سفيان من محارب شرس إلى نسر بلا مخالب يحمل لقومه فرصة أمان وسلامة من دخل دار أبي سفيان فهو آمن!!

حين أتم نصره ودخل إلى الكعبة المشرفة ظافراً منصوراً وصلى في جوف الكعبة ركعتين وهدم ما فيها من نصب الجاهلية ثم خرج ليرى أعداءه الشرسين الذين حاربوه عشرين عاماً وقد أسقط في أيديهم وأصبحوا محض مطلوبين للعدالة تشتاق إلى أعناقهم سيوف العدل والقصاص، قال لهم بلهجة صارمة: ما تظنون أني فاعل بكم؟ تحسسوا رقابهم، وتلا كل واحد منهم دليل اتهامه على جبين صاحبه، وفيه دماء سبعين شهيداً يوم أحد وأكثر من ذلك في أيام الإسلام المختلفة، ولكنهم في النهاية استجمعوا ما تبقى فيهم من أعصاب وقالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم!!

وطاف بخياله عشرون عاماً من الحرب والمكر و الغدر والعناء كابدها جراء غرورهم وأوهامهم وهم يحاربونه في كل وجه، ولكنه لم يزد أن ابتسم وقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

كان مدهشاً أنه لم يقل لهم لقد أطلقتكم أو عفوت عنكم أو سامحتكم!!

لم يشأ أن يبطل عفوه بآفة المن، ولم يشأ أن يريق ماء وجوههم، واختار أن يخبرهم بأنهم طلقاء أطلقهم الله ولا يد لأحد غير الله عليهم في رقابهم وأعناقهم.

ولكن اثنين من المشركين كانوا قد استحقوا سيف القصاص وهم عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وهؤلاء كانوا قد ارتكبوا جرائم قتل مباشرة لصحابة آمنين وكان من المنطقي أن يحاسبوا على ما جنته أيديهم.

وسائر الذين أعلن عنهم مطلوبون للقصاص تم العفو عنهم فيما بعد ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ووحشي بن حرب وكعب بن زهير بن أبي سلمى وآخرون كثير.

ولعل أشهر مواقف العفو والمرحمة موقف الشعر كعب بن زهير الذي شاع أنه مهدور الدم ولم يجد سبيلاً للخلاص من ذلك إلا أن يقوم بين يدي رسول الله، وهناك أنشد واحدة من أعذب قصائد الاسترحام، ومطلعها بانت سعاد فقلبي اليوم متبول وفيها:

تسعى الوشاة بجنبيها وقولهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

وحين وصل إلى قوله:
إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ألقى عليه رسول الله عباءته إشارة إلى العفو الذي كان يأمله من رسول الله.

ولعل من أجلى صور العفو والسلام أنه لما وقع أبو سفيان في الأسر، قال النبي الكريم للعباس احبسوه عند مضيق الوادي، حتى إذا جاءت كتائب الصحابة قال حامل الراية سعد بن عبادة: اليوم يوم الملحمة اليوم أذل الله قريشاً!!! لقد كانت كلمات واقعية، ولكن رسول الله بادر من فوره حين بلغه ذلك فمضى إلى سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى قيس بن سعد بن عبادة وقال: اليوم يوم المرحمة.. اليوم أعز الله قريشاً..

إنه بالفعل يوم المرحمة يوم أعز الله العرب يوم الفتح الأعظم يوم فتح مكة.[8]

وغاية القول أن النبي الكريم تجنب الحرب في حياته ما استطاع، وقد تمكن أن يمضي الفترة المكية كلها بدون دماء، وحين وصل المدينة حاول أن ينزع فتيل كل حرب فرضها عليه خصومه، وحفر الخنادق الكبيرة لمنع الحرب، واستجاب في التفاوض لمطالب استفزازية كثيرة فرضها خصومه، وأنجز معاهدات متعددة لم يرض بها أقرب أصحابه إليه كما في يوم الحديبية رجاء أن لا تندلع الحرب، وقد نجح نجاحاً كبيراً في ذلك، ولكنه اضطر للدفاع عن نفسه وأصحابه في أيام ستة معروفة خلال حياته.

وحين قتل الروم سفراءه الثلاثة في مؤتة من السنة التاسعة خرج في غزوته الأخيرة بثلاثين ألف مقاتل إلى تبوك، ولكنه لم يشأ أن يتقدم صوب حواضر الروم واكتفى بسلسلة مصالحات ومعاهدات مع قبائل الشمال، وكانت تبوك آخر نشاط حربي له في مواجهة خصومه.

وأعتذر للقارئ الكريم في بسط هذه التفاصيل من السيرة النبوية ولكنها ضرورية لتأكيد الحقيقة الواضحة وهي أن سياسة رسول الله هي تجنب الحرب قدر الإمكان، وحين تقع الحرب فقد كان حريصاً أن لا يثخن في أعدائه أبداً، ولعل من المإشارات الهامة أنه وقد خاص سبعاً وعشرين غزوة نمها ستة أو سبعة فيها التحام حقيقي وكان دوماً في مطالع الصفوف، وكنا إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق وجحظت الأعناق نتقي برسول الله فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولكنه لم يقم أبداً بقتل أحد، وجنب سيفه لون الدم، ولم تسجل في طول جهاده إلا حادثة أبي بن خلف الذي أقبل يوم أحد ينادي أين محمد لا نجوت إن نجا، وحين رفع السيف ليقتل النبي الكريم رده بظبا يفه فأصاب منه خدشاً غير كبير ورد كيده، ولكن الجرح تفاقم بعد أيام وهلك أبي وهو يقول والله لو بصق علي لقتلني، فهذه هي الحادثة الوحيدة التي وصل فيها سيف النبي إلى أحد من أعدائه.

[8] تفاصيل الفتح كلها من مقتبسة من سيرة ابن هشام وابن إسحق في خبر فتح مكة

علاقة الأمة الإسلامية بالمجتمع الدولي:

اعتاد الفقهاء أن يدرسوا العلاقات الدولية وأحكام الموادعة والتعاون الدولي تحت عنوان الجهاد، وأعتقد أن هذا موقف غير مستقيم، وأن من حق مسائل التعاون الدولي والعلاقات بين الأمة المسلمة وبين جيرانها في العالم أن يأخذ حقه من البحث والدراسة.

ومن المؤسف أن السلفية الجهادية اليوم تعتبر أن هذا اللون من الموادعة كله قد نسخ بآية السيف ولا مكان بعد آية السيف لأي موادعة، وقد نسخت آية السيف سبعين آية، وأن الذي يحكم علاقات المسلم بالعالم من حوله هو قاعدة الولاء والبراء، حيث تطرح اليوم ثقافة الولاء والبراء على أنها من مسلمات الشريعة وهي الولاء لله والبراءة من أعدائه، والحقيقة أن هذا المصطلح لا غبار عليه من جهة الحديث عن الله وعن عدو الله، ولكنماذا عن الآخر الذي ليس عدواً ولا محارباً؟؟

تكمن المصيبة أن الحركات الجهادية تقسم العالم كله بثنائية صارمة، فأنت إما مؤمن متبع أو عدو محارب، مع أن قيم القرآن الكريم طافحة بخيارات أخرى، وهناك عالم طويل عريض يمتلئ بالمختلف اعتقاداً ومصالح وثقافة واقتصاداً، وكلهم شركاؤنا في هذا الكوكب، وعلى الأمة أن تجد أي سبيل للعيش المسترك مع الناس على هذا الكوكب مهما كانت اختلافاتنا الدينية والعرقية كبيرة، وأن حرمة الإنسان ي دمه وعرضه محفوظة لكل إنسان ما لم يرتكب جرما، بل إن عصمة الدماء وردت في القرآن الكريم لحماية الروح الإنسانية ووردت بنص النفس مطلقة وليس مقيدة أو منسوبة إلى دين أو آخر، من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

طرح القرآن الكريم عدداً من القيم التي تحكم صلة الدولة المسلمة بغيرها من الدول انطلاقاً من آية الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[9]

[9] سورة الحجرات 13

وواضح من سياق الآية الكريمة أن التعارف هو غاية هذا التنوع الذي يقوم في العالم، ويجب القول إن التعارف هو أصل في العلاقات البيضاء بين البشر في الأرض، حين تكون العلاقة قائمة على أساس الأسرة الإنسانية، قبل أن تتعرض لأي تطور سلبي أو إيجابي.

وأشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى إقرار الاختلاف بين الناس، واعتبار ذلك الاختلاف محموداً إذا كان في إطار التنوع والاحترام، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم﴾(10).

وحين تتطور العلاقات بين البشر إيجاباً وسلباً فإن القرآن الكريم طرح قيماً أخرى للعلاقات بين الأفراد والدول، ولم يقبل من المسلم أن يستمر في لغة الصفح والغفران في حين أن الآخرين يمارسون العدوان والقتال، بل طرح خيارات واقعية متعددة تتنوع بحسب واقع الأسرة الدولية وتطور العلاقات بين الدولة الإسلامية ونظرائها في العالم.

ففي السياق الإيجابي لم يكتف بالتعارف وإنما طرح سلسلة من العلاقات الإيجابية تبدأ بالتعارف ثم التنافس ثم التعاون ثم الإخاء ثم التراحم ثم الإيثار، وفي الجانب السلبي فإنها تبدأ أيضاً بالتعارف ولكنها تتطور هبوطا إلى التدافع حتى تبلغ في النهاية القتال والمواجهة.

ويمكن قراءة هذه الحقيقة في كتاب الله من خلال تتبع الوصايا القرآنية الحكيمة في هذا السبيل:

التطور الإيجابي:

التعارف:﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(11).

التنافس:﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (12).

التعاون:﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(13).

التراحم:﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾(14).

الإيثار:﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(15).

الإخاء:﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(16).

ومن الطبيعي أن كل واحدة من هذه القيم مرتبطة بالسلوك المقابل الذي يقوم به الآخر ويحدد موقعه من منظومة القيم في إطار العلاقات المتبادلة.

---

[10] سورة المائدة 48
[11] سورة الحجرات 13
[12] سورة المطففين 26
[13] سورة المائدة 3
[14] سورة الفتح 29
[15] سورة الحشر 9
[16] سورة الحجرات 10

التطور السلبي:

وبالمقابل فإن هذه القيم تتوجه هبوطاً لمواجهة سلوكيات شائنة يبادل بها الآخر موقف الأمة من التعارف والتكامل، فتتجه القيم إذن من:

التعارف: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(17).

الجدال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾(18).

المعاملة بالمثل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾(19).

الحذر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً﴾(20).

التربص: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾(21).

الاستعداد: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(22).

التدافع: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾(23).

القتال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(24).

وهكذا فإن العلاقة الطبيعية في الإسلام تبدأ بالتعارف ثم تتوجه صعوداً أو هبوطاً بحسب سلوك المتلقي، والأمر يصدق على العلاقة بين الأفراد وعلى الواقع السياسي بين الدول.

---

[17] سورة الحجرات 13
[18] سورة العنكبوت 46
[19] سورة البقرة 194
[20] سورة النساء 101
[21] سورة التوبة 52
[22] سورة الأنفال 60
[23] سورة الحج 40
[24] سورة البقرة 190

تصـــور للعلاقـــات الإسلامي والمجتمعات منطق لتعارفوا

والتعـــارف: قيمـــة ومنهـــا يبـــدأ تطـــور إيجاباً، وهي أدنى سلم السلب.

البيضـاء بـين المجتمـع الأخـرى القائمـة علـى

بيضـــاء ومشـــتركة، العلاقـــات ســـلباً أو الإيجـاب وأعلـى سـلم

دارالإسلام ودارالحرب

جاء الاسلام بالدعوة إلى الحوار والإخاء الإنساني، وعززت ثقافة القرآن الكريم وجوب احترام الإنسان وبناء علاقات صحيحة بين البشر، وأكدت طبيعة نزوع البشر إلى الاختلاف والتنوع، ودعا القرآن الكريم إلى فهم الجانب الإيجابي من الاختلاف بين الشعوب والأقوام، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، وأوصى القرآن في آيات كثيرة بوجوب بناء علاقات حسنة بين المسلمين وبين الناس، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، ومثل هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم فهو يأمر بالقول الحسن للناس بغض النظر عن أديانهم وألوانهم وقبائلهم، ثم يأمر بالإحسان إلى الأرض وهي أمنا جميعاً بغض النظر عن أي انتماء ديني أو مذهبي.

وهذه الروح من الانفتاح على العالم وبناء العلاقات الإيجابية هي في الواقع روح الإسلام ورسالته الأولى، ولكن يجب القول هنا بأن عدداً من فقهاء السلف لم يقبلوا هذا اللون من العلاقات الودية واختاروا تصنيف العالم إلى فسطاطين اثنين دار إسلام ودار كفر، أو دار إسلام ودار حرب(25)، وهذا الموقف الفقهي تتبناه اليوم التنظيمات الجهادية التي لا ترى في العالم إلا عدواً ينبغي قتاله، وهي ترفض منطق العلاقات الدبلوماسية بكل أشكاله، وتطالب بمواجهة عسكرية مع العالم حتى يدخل في الإسلام.

[25] انظر مثلاً كتاب المغني لابن قدامة المقدسي ج9، ص 210 وفيه ان الجهاد قتال الناس لإدخالهم في الدين الحق وأمر بغزو أهل الكتاب والمجوس بدون إنذار أو بلاغ.

ولا بد من القول أن ما روي عن كبار الفقهاء من آراء متشددة إنما كان نتيجة ظروف سياسية خاصة إبان الحروب الصليبية على وجه التحديد التي اشترك فيها الغرب في محاربة الإسلام، وأدت إلى تعاظم الريب وانهيار فرص الحوار والدبلوماسية.

ويقدم هؤلاء موقفهم على أساس أنه خيار السلف في العلاقات الدولية، ويشيرون إلى اختيار الإمام أبي حنيفة وكذلك فقهاء كثير من المالكية والحنابلة في تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب.

وقد ثار الجدل قديماً في طبيعة العلاقة بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى وهل الأصل في هذه العلاقات السلم أم الحرب، وحاصل القول انه اختلف الفقهاء في أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب كثير من الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم الحرب، وإلى هذا الرأي ذهب عدد من العلماء المعاصرين منهم سيد قطب، وصالح اللحيدان، وأبو الأعلى المودودي.

ورأى أصحاب هذا القول أن تشريع الجهاد والأمر بالنفير في سبيل الله لمحاربة الكفار، والأمر بالاستعداد لمواجهة الكفار بالقوة ورباط الخيل يجعل الأصل هو الحرب، وأن السلم استثناء يقدر بقدره.

القول الثاني: ذهب بعض الفقهاء إلى أن أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلم، وأن الحرب أمر طارئ لا يلجأ إليها إلا عند الاعتداء على المسلمين أو ظلمهم أو فتنتهم عن دينهم، وقد ذهب إلى ذلك الثوري والأوزاعي والكمال بن الهمام وابن تيمية وابن القيم، ومن العلماء المعاصرين الدكتور وهبة الزحيلي، والشيخ محمد أبو زهرة ومحمود شلتوت وعبد الله بن زيد آل محمود وغيرهم.

القول الثالث: إن علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم علاقة دعوة تتنوع حسب الظروف والأحوال تبعاً للمصلحة الحقيقية لأهل الأرض جميعاً، فقد تكون علاقة المسلمين بغيرهم علاقة سلم قبل إبلاغهم الدعوة أو أثناء تبليغها، وإذا تجاوبت الأمم غير الإسلامية مع الدعوة، وقد تكون علاقة المسلمين بغيرهم علاقة حرب بعد إبلاغهم الدعوة، وعندما توضع العقبات أمام تبليغها" (26).

ولا يخفي كاتب هذه السطور ميله إلى القول الثاني الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الثوري والأوزاعي وابن القيم وآخرون، وهو أن الأصل في علاقات الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم إنما هي السلم، وقد دلت على ذلك آيات ونصوص كثيرة، في الكتاب والسنة، منها قوله تعالى:

---

[26] مجلة الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة، المجلد19، العدد الثاني، ص379– ص417 يونيو 2011، بحث د. محمد علي سليم الهواري

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(27).

وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(28).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾(29).

وقوله تعالى: ﴿ولا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْن لهُ مُسْلِمُونَ﴾(30).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوْكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوْكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيْلاً﴾(31).

ولا أعتقد أن الذين ذهبوا إلى القول الأول أو الثالث يقصدون بالفعل أن تبقى الأمة في حالة حرب مع الناس، وإنما كانوا يتحدثون عن ظروف خاصة عاشتها الدعوة الإسلامية في مواجهة أعداء طامعين، كما جرى إبان الحروب الصليبية أو المغولية أو الاستعمارية، عندما أكلتهم الناس عن قوس واحدة، وهو الحال نفسه الذي سبق أن واجهته الرسالة بعد أن تم فتح مكة، واتفق العرب على غزو مكة، وأقبل المشركون من ثقيف وهوازن وغطفان وحشدوا في وادي حنين أربعين ألفاً للقضاء على الإسلام واجتياح مكة، وعندها نزلت آية السيف في سورة التوبة وغيرها من الآيات التي تأمر بالقتال وتدعو إلى مواجهة شاملة مع قوى الكفر من المحاربين ومن يقف إلى جوارهم من أعداء الإسلام.

والحقيقة أن هذا الاختيار المنسوب للإمام أبي حنيفة بقسمة العالم إلى دار إسلام ودار حرب، له اعتباراته وضوابطه، ولا يعني أبداً أن أبا حنيفة قصد إلى استعار الحرب بين المسلمين وشعوب الأرض، بل كانت عنده محض ثنائية توضيحية أراد من خلالها تمييز دار الإسلام من سواها، بدليل أن فقه الحنفية أفرد في فصولاً متعددة للعهد والأمان والذمة، وفقهه رحمه الله طافح بالتسامح والتراحم والحكمة، ولكن هذا الموقف التصنيفي يقدم اليوم تبريراً للفكر الجهادي التكفيري الذي يدعو الناس إلى حمل السلاح وقتال الآخر غير المسلم حتى يدخل في الدين الحق.

ولا بد أن نشير أن الرأي الأول والثالث وإن كان لهما مرجعية قوية في الفقه الإسلامي وتمت نسبتهما إلى أئمة ذوي مكانة ولكن لا يسوغ على الإطلاق قبولهما في عالم اليوم، حيث تتأسس العلاقات بين الدول على أساس الموادعة والمسالمة، وتقوم الأمم مجتمعة بأقرار قوانين العلاقات الدولية على أساس العدالة والمساواة، وتقوم محكمة العدل الدولية في لاهاي بتفويض من الجمعية العامة في الأمم المتحدة بفض المنازعات الحدودية في العالم، مما يفرض ظروفاً منطقية للسلام في

---

[27] سورة الأنفال 61
[28] سورة البقرة 208
[29] سورة النساء 94
[30] سورة العنكبوت 46
[31] سورة النساء 90

الأرض، ويجعل أي اعتداء على دولة في العالم محل استنكار كافة الدول، وقد جنت الدول التي تحترم القانون الدولي مكاسب عظيمة من الاستقرار في ظل القانون الدولي فيما ظلت الدول التي تفشل في التعامل مع الهيئة الدولية تعاني القلق والفوضى وضياع الحقوق.

ولا أعتقد أن الإمام أبا حنيفة الذي أثرت عنه القسمة الثنائية لدول العالم بين دار الإسلام ودار الحرب سيقبل قسمة كهذه في عالم اليوم، خاصة أن الفقه الحنفي طافح بالمواقف الحضارية في الاعتراف بالآخر، وأن أبا حنيفة كان يقود فكراً إسلامياً متطوراً ويؤسس لأحكامه على منطق الاستحسان الذي يتيح العدول عن الحكم الظاهر إلى الحكم الخفي، ويتيح للناس ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس.

وأبو حنيفة كان من أكثر الفقهاء حماساً لقبول الآخر، وقد أفتى بأن المشركين لا يمنعون من دخول البيت الحرام، وأن المنع من دخول المشركين هو خاص بالمحاربين من المشركين دون سواهم.

آية السيف:

ولعل أكثر ما يحيرك اليوم في مفاهيم الجهاديين هو قولهم بأن آية السيف نسخت كل ما كان قبلها من آيات التسامح والغفران، وقد اشتهر هذا القول بينهم حتى لم يعد لآيات الغفران أثر فيهم، ومع أنهم يقرؤون من كتاب الله آيات التسامح والغفران ولكنهم يذهبون إلى أن هذه الآيات قد نستختها آية السيف، ولا مكان لإعمالها في التشريع اليوم، وذلك أن الدعوة بلغت جميع الخلق ولا يحتاج اليوم حتى للخيارات الثلاثة الإسسلام أو الجزية أو السيف، بل يكفي القتال لأن الدعوة بلغت القوم وقد قامت عليهم الحجة، والنص الناسخ الباقي هو قوله تعالى: تقاتلونهم أو يسلمون. إي تقاتلونهم حتى يدخلوا في الإسلام.

ويرى هؤلاء أن الأمر على مات عليه الرسول وأن كل ما ورد من نصوص الشريعة في إطار العلاقات الحسنة مع غير المسلمين والتعاون معهم فإنه منسوخ بآية السيف في سورة التوبة، وربما استدلوا بقول السلف أن آية السيف نسخت جميع الموادعات، وفي نص آخر آية السيف نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية في كتاب الله(32).

وآية السيف على المشهور هي قوله تعالى: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(33).

---

[32] نواسخ القرآن لابي الفرج بن الجوزي ج1 ص 173 ، وانظر كذلك الناسخ والمنسوخ لهبة الله المقري ص 99

[33] سورة التوبة 36

ومن المعلوم أن الأخذ بموقف كهذا يؤسس لعالم قائم على النزاع والخصومة والحروب، ويتنافى مع مقاصد الإسلام في نشر المحبة والإخاء، وفق ما أشارت إليه الآيات البينات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

وفي الحقيقة فقد فند العلماء قديماً ما روي من أن آية السيف نسخت سبعين آية أو أكثر من ذلك، وقد حرر الإمام السيوطي ذلك في كتابه الإتقان في علوم القرآن، مبيناً أن السلف ذكروا النسخ في غير المعنى الذي استقر عند علماء الفقه والأصول، وكانوا يقصدون بالنسخ تقييد المطلق أو تخصيص العام، وبشكل أدق فإن الأمة في أول الإسلام كانت منهية عن القتال حتى في إطار الدفاع عن النفس، وقد قضى ياسر وسمية وغيرهما شهداء على يد المشركين ولم يؤذن للرسول ولا للصحابة بالدفاع عن المستضعفين بالسيف أوغيره من السلاح، ونهى رسول الله سعداً عن رمي المشركين بالسهام، على الرغم من عدوانهم وأذاهم، مستدلاً بآيات العفو والرحمة: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾، ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾، وغيرها من نصوص العفو والرحمة، ولكن الإسلام اشتد عوداً بعد ذلك، ونزلت الآيات المحكمات في مشروعية الجهاد، وأصبحت دلالة هذه الآية على ترك الدفاع عن النفس ضد الظالمين منسوخة، ونزول آية السيف رفع دلالة آيات العفو على ترك الجهاد والدفاع عن النفس، وهو ما كان ممنوعاً على أفراد المسلمين وجماعتهم قبل أن يصبح لهم دولة وقضاء وجيش وسلطان(34).

ومن جانب آخر فقد أطبق العلماء على أن القول بالنسخ يتطلب شروطاً كثيرة أشهرها ثلاثة وهي أن يتعذر الجمع بين النصين، وأن يكون الناسخ في قوة المنسوخ أو أقوى، وأن يعلم المتقدم والمتأخر ليصار إلى القول بنسخ المتأخر(35)، وذلك كله غير متحقق في ما يذهبون إليه، ولاسيما أن الجمع بين هذه النصوص ممكن وميسور، ولا نقول بالنسخ إلا عندما يتوفر نصان متناقضان لا يمكن قبول أحدهما دون رد الآخر.

المستويات السبعة عشر

وهكذا فقد نزلت الآيات الكريمة في القرآن الكريم تنظم علاقة المسلمين بالناس على مستويات كثيرة رصدتها في دراسة سابقة بسبع عشرة مستوى، ويمكننا ملاحظة ذلك وتتبعه في القرآن الكريم حيث تبدأ من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾36، ومثلها قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾37، وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾38، ثم قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ

[34] انظر الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج 1 ص256
[35] المصدر نفسه
[36] سورة الجاثية 14
[37] سورة البقرة 256
[38] سورة الكافرون 4

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾39، **ثم قوله:** ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾40، **ثم قوله تعالى:** ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم﴾41**.**

وهذه المستويات كلها كلام إلهي حكيم، ولكل منها موقعه وزمانه ومكانه، فما نزل في ساعة المواجهة والجهاد من الأمر بالقتال لا يلغي ما نزل في وقت السلم، ولا يلغي ما نزل في حق الجوار والعيش المشترك مع غير المسلم ممن لا يروم سوءاً بالإسلام أهله....

وحتى لا نذهب في بحثنا هذا بعيداً، فإننا نكتفي بالوقوف عند البيان القرآني الصريح في سورة الممتحنة الذي يصنف الناس على مستويات متعددة بحسب موقفهم من الإسلام والمسلمين:

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**(42).**

وأمام هذا النص القرآني الواضح فإنه لا مندوحة من القول بأن قسمة العالم إلى فسطاطين اثنين لا ثالث لهما هي قسمة غير حكيمة ولا مستقيمة.

وفي محاولة للاقتراب من النص القرآني الكريم في توجيهه للأمة حول شكل العلاقة مع الآخرين، فقد اخترت أن أضم هنا تطور الخطاب القرآني على سبع عشرة مرحلة، تدور بين العفو والمعاهدة والقتال، ولكنها في النهاية تستجيب للظروف الموضوعية المحيطة بتنزلها فيما يتصل بحال الأمة ضعفاً وقوة، وحال أعدائها من الموادعة أو المخاصمة أو المحاربة.

---

[39] سورة الحج 39
[40] سورة البقرة 190
[41] سورة البقرة 192
[42] سورة الممتحنة 8

م	الآية	البيان	الزمان
1	﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾	الغفران والتسامح مع غير المؤمنين	مكية
2	﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾	الكف عن إساءاتهم واستهزائهم	مكية
3	﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾	حق أتباع كل دين باختيار ما يؤمنون به	مكية
4	﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾	الامتناع عن مهاجمة آلهتهم حتى نضمن حيادهم	مكية
5	﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾	إعلان الحرية الدينية	مكية
6	**﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾**	احترام الخيار الاعتقادي والنوايا	مدنية
7	﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا﴾	تقسيم الناس بحسب خياراتهم، وإقرار دار الحرب ودار العهد	مدنية
8	﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيْلاً﴾	لا عدوان على الشعوب والدول المسالمة	مدنية
9	﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾	الإذن بالقتال ضد المعتدين	مدنية
10	﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾	نقاتل من قاتلنا ولا نعتدي	مدنية

11	﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾	وجوب مقاتلة الجماعات الكتابية التي رفضت الانضمام للدولة الناشئة حتى يدخلوا في طاعة الدولة	مدنية
12	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾	نقاتل الكفار من الدول المجاورة إذا تواطأوا على قتالنا	مدنية
13	﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾	نقاتل المشركين كافة إذا اتفقوا على قتالنا كافة	مدنية
14	﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾	نقاتلهم ولو لم يكونوا في ساحة المعركة إذا سبق منهم العدوان والقتل	مدنية
15	﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾	نقاتلهم في ساحة المعركة دفاعاً عن أنفسنا	مدنية
16	﴿**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾	السلم والموادعة أفضل عند الله حين تصح نواياهم في السلم	مدنية
17	﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾	الدعوة للسلام الشامل	مدنية

ومن خلال قراءة النصوص فإن من الواضح القول بأن تنزّل الآيات الكريمة كان وفق الأحداث والظروف التي تواجهها الأمة، وأن الأوامر القرآنية إنما كانت تختص بظرف محدد، ولا بد أن نفهمها في سياق سبب النزول الذي وردت به، وأن ندرك أن هذه النصوص جميعاً وإن كانت بصيغة العموم ولكنه من باب العموم الذي أريد به الخصوص، والمطلق الذي أريد به المقيد، وهي قواعد واضحة عند علماء الأصول، ولا يجوز إطلاق التعميم فيما سبق ليس فقط لأنه كما يظن المتشددون سيلغي العلاقات الودية مع غير المسلمين ولكن لأنه سيؤدي إلى التناقض وتعارض الأدلة، والحق الذي لا

شك فيه أن سائر هذه النصوص تنزيل حكيم من الله، ولا سبب للقول بنسخ بعضها ببعض وإنما العمل بها جميعاً كل في الظرف الذي تنزل فيه.

وهكذا فإن العلاقات الودية مع الدول المسالمة في الإسلام مؤسسة بنص القرآن الكريم، كما أن الجهاد ضد المعتدين هو أيضاً أمر قرآني كريم.

وقد سبق الإمام الشافعي في تصنيف العالم إلى قسمة ثلاثية: دار إسلام ودار حرب ودار عهد، وربما استخدم مصطلح دار أمان أو دار مصالحة، وبهذا التصنيف أكد الإمام الشافعي على وجود بلاد كثيرة ليست من أرض الإسلام، والناس فيها يحتكمون إلى أديان أخرى، أو لا يدينون بدين ولكن يحكم علاقتهم بالمسلمين السلم وفق العهود والمواثيق التي يقبلها الطرفان.

وهكذا فقد استقر في الفقه الإسلامي التحول إلى القسمة الثلاثية في إطار العلاقات الدولية[43]:

- دار الإسلام
- دار الحرب
- دار المعاهدة

فتكون دار الإسلام هي الأرض التي يعيش عليها المسلمون وتطبق فيها أحكام الشريعة، ودار الحرب هي الدولة التي تعلن الحرب على المسلمين ولا تحترم شعائرهم ودينهم ونبيهم، وما تبقى بعد ذلك فهو دار عهد يحكمها طبيعة الاتفاق الذي تبرمه الدولة الإسلامية مع هذه الدولة في إطار العلاقات الدولية، وهذه العلاقات والاتفاقيات تدور في فلك المباح الذي ترك لولي الأمر أن يتصرف فيه من خلال مؤسسات الشورى والحكم التي تتبناها الأمة.

وقد أفردت موسوعة الفقه الإسلامي وأدلته تحرير هذا الموقف الفقهي تحت عنوان الاعتراف ونتائجه:

---

[43] انظر الحاوي في الفقه الشافعي للماوردي ، ج 14، ص 267

"إن تنظيم المجتمع الدولي الحاضر تنظيم حديث لم يكن على هذا النحو وقت ظهور الإسلام وفي عصور دوله المتتابعة كما هو معروف، لذا كان مرجع تفصيل الأحكام الدولية إلى القانون الدولي العام، إلا أن المبادئ الأصلية والأخلاق الدولية السائدة مقررة بوضوح في الإسلام.

وبما أن الإسلام ينشد في الحقيقة الوصول إلى سلم مستقرة في علاقاته مع الشعوب الأخرى على أساس أحد أمرين: إما الدخول في الإسلام، أو المعاهدة والأمان، فإن الاعتراف بوجود الدولة الأخرى غير المسلمة (دار الحرب) أمر لا مانع منه استصلاحاً في مبدأ الإسلام وفقهه المتمثل في تقسيم العالم إلى دارين: دار إسلام ودار حرب، لأن دار الحرب تشمل كل الدول غير المسلمة التي كانت في الأصل غير مسالمة للمسلمين ولا متعاهدة معهم، فإذا تمت المعاهدة السلمية بين الدولة الإسلامية وغيرها من دول دار الحرب، أو التزمت هذه الدول كلها ميثاقاً واحداً ينص على احترام السلم والأمن الدوليين، وتحريم التدخل في شؤون الدول الأخرى كان ذلك اعترافاً ضمنياً من الدولة الإسلامية بغيرها، فضلاً عن أن الاعتراف يصدر في الغالب صراحة بإرادة حرة.

وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[44].

وبناء عليه يجوز للدولة المسلمة الاعتراف بدولة غير مسلمة اعترافاً علنياً أو ضمنياً حقوقياً أو واقعياً بحسب الحال.

وكون الدعوة الإسلامية ذات نزعة عالمية عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، وبالتالي امتداد سلطان الدولة الإسلامية مع انتشارها في المعمورة: لا يعني تجاهل ظروف الإمكان وضرورات الواقع ومصلحة السلام التي تجعل من دولة الإسلام إحدى دول هذا العالم التي تتبادل بينها أمر الاعتراف لفض منازعاتها على أساس سلمي يتمشى مع منطق الإسلام ووحي رسالته[45].

---

[44] الانفال 61

[45] الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي ج 8، ص 448

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لاتدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضا .. فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك، وأمناً لبلادك ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فان العدو ربما قارب ليتغفل"[46].

ولا شك أن خيار الإمام الشافعي في القسمة الثلاثية قابل للتفريع وفق ما تحتاجه الأمة المسلمة في ظروفها وأحوالها، والجانب الجوهري فيه هو أن الولاء والبراء ليس قسمة لازبة لا ثالث فيها، فهناك عدو يجب مواجهته وقيادة للأمة يجب موالاتها، وهناك مساحة كبيرة للعلاقات الدولية على أساس الجوار والمصالح المشتركة وفق القانون الدولي،

معالم فقه الجهاد في الإسلام

تشتد الحاجة إلى تحرير فقه الجهاد خاصة عندما نرى أن الأمة تقع فيما حذر منه الرسول الأكرم من الدخول في الفتنة والتشدد في الدين، الأمر الذي أدى بالغلاة إلى تكفير المسلم لأخيه المسلم واستباحة دمه وماله وعرضه، وهي كارثة مؤلمة سبق إلى التحذير منها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لذي الخويصرة التميمي: دعه، فإنه سيخرج من ضئضئ هذا قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان.47

وحين ظهر التشدد في الأمة لم يبال المتشددون في إراقة دم المسلم وهدر دمه، ودفع خيار الصحابة حياتهم ثمناً لمواجهة هذا الفهم السقيم للجهاد الذي تبناه المتشددون، ولا بد هنا من الإشارة باحترام

---

[46] نهاية الأرب، أحمد بن عبد الوهاب النويري ج2، ص 168

[47] صحيح البخاري ج6 رقم الحديث 2702

وإجلال وإكبار إلى الشهيدين السعيدين الكبيرين اللذين اغتالهما التشدد المنحرف عن هدى الإسلام وهما صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفتاه وصهراه عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب عليهما رضوان الله.

فقد استشهد عثمان رضي الله عنه على يد طائفة يزعمون أنهم مسلمين وقد اندفعوا في ارتكاب جريمتهم بعد أن أفتاهم المنحرفون اقتلوا نعثلاً فقد كفر، أما علي بن أبي طالب فقد قتله عبد الرحمن بن ملجم الخوارجي بسيف لئيم غادر وهو يقول اللهم تقبل مني جهادي، فإنني ما قتلته إلا فيك وفي سبيلك!!

إن ما عرفته الأمة المسلمة في عصر الفتنة الأولى هو نفسه ما نكابده اليوم من خلال انتشار التشدد الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما يفرض على قادة الأمة البحث عن الأدلة الشرعية التي تحدد فقه الجهاد وتميز بين مسؤولية المسلم في الجهاد ومسؤوليته في اجتناب الفتنة، فإن الإسلام الذي أمر بسل السيف ساعة الجهاد أمرك بكسر السيف يوم الفتنة، وهذا ما يدعونا لدراسة الأمر على وفق الأدلة الشرعية المحكمة، وهو ما آمل أن تؤديه هذه الدراسة.

والجهاد أحد دعائم الإسلام الكبرى وهو إرادة الله لحماية الحق في مواجهة الباطل ، وقد شرع الجهاد مع أيام الإسلام الأولى ويجب التنبيه هنا إلى أن الأمر بالجهاد قد ورد في مطلع الآيات المكية وليس صواباً أن يقال إنه فرض في السنة الثانية للهجرة كما اشتهر لدى الناس، ففي سورة العنكبوت على سبيل المثال قول الله تعالى : ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين[48] وفي آخر العنكبوت يقول الله تعالى: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين.[49]

والجهاد الذي كان مشروعاً في مكة كان في الواقع يختص بجهاد النفس والهوى ويتناول أيضاً أشكال الجهاد المختلفة، وقد عددنا منه تسعة أنواع من الجهاد، وهي مطلوبة من المسلمين بحسب أحوالهم وإمكاناتهم، وهي:

جهاد النفس والهوى والجهاد بالمال والجهاد بالتعليم والجهاد بالإغاثة والجهاد بالطبابة والجهاد بالكلمة والجهاد بالدعاء والجهاد بالنصرة والجهاد بالإعلام

أما الجهاد بالقتال فهو الذي تأخر إلى ما بعد الهجرة النبوية حيث قال الله تعالى: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير.

وفي مراجعة سريعة لآيات الجهاد فإنه يمكنك أن ترى المستويات السبعة عشر التي أوردناها قبل قليل في تأصيل الجهاد، وهي آيات تبدأ من مثل قول الله تعالى: قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ثم ترد آيات كثيرة تنهى عن القتال كقوله تعالى: ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله ، وقوله تعالى: فاعف عنهم واصفح، وفي آية

[48] سورة العنكبوت 6
[49] سورة العنكبوت 69

أخرى فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون، وثم يرتقي الأمر إلى حد الإذن بالمواجهة كما في قوله تعالى: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ،إن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ويرتفع إلى حد الإذن برد العدوان فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، وكذلك قوله تعالى: وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله، ثم تأتي آيات بينات في صريح الأمر بالقتال ضد المعتدين كما في سورة البقرة: وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ويزداد الأمر وضوحاً حتى يؤمر النبي بالقتال والتحريض عليه كما في قوله تعالى: فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً.

ولكن هذا الأمر الإلهي يأخذ أبعاداً أخرى حين يأمر القرآن الكريم بصريح العبارة بالقتال ضد الكافرين والمشركين حيث يقول الله سبحانه: انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، وبعد ذلك تنزل آيات شديدة في حق المتقاعسين عن القتال : وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله، ويؤمر المسلمون بقتال المشركين كافة: وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين.

وفي آيات أكثر وضوحاً يرد الأمر الإلهي بالنص: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وكذلك في قوله تعالى: فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها.

تكمن المشكلة في أن التيار التكفيري يرى في هذه الآيات ناسخاً لما تقدمها من الآيات البينات، وتشتهر عندهم عبارة: الأمر على ما مات عليه الرسول وبهذا المعنى فإن هذه الآيات تبدو ناسخة لكل ما تقدمها من نصوص القرآن الكريم، ولا مكان بعد ذلك لآيات الرحمة والسلام والمحبة بعد أن فرض الله على المسلمين جهاد المشركين كافة.

والحقيقة أن القول بالنسخ في هذه الآيات لا يمكن قبوله ذلك أن القول بالنسخ عقلاً وشرعاً يشترط شروطاً ثلاثة وهي أن يتعذر الجمع بين النصين وأن يكون الناسخ في قوة المنسوخ أو أقوى وأن يعلم المتقدم والمتأخر، وفي هذه الآيات الكريمة فلا وجه للقول بالنسخ لأن الجمع بين النصوص ممكن، ويجب قراءة كل نص في سياقه فلكل حديث سبب ورود كما في القرآن الكريم أسباب نزول، وقد بسط العلماء القول في ذلك.

غاية الأمر أن آيات الجهاد باقية محكمة ومكانها ساحة المعركة ، ولا يوجد أي سبب للقول بأن هذه الآيات ناسخة أو منسوخة، فحيث نقرأ الأمر بالغفران عن الذين لا يرجون أيام الله من الكافرين فالمقصود هم أولئك الذين لم يحاربوننا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا ولم يظاهروا على إخراجنا تماماً كما أخبر القرآن الكريم: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الفاسقون.

وهكذا فإن آيات الجهاد محكمة متينة ولا وجه للقول بإلغاء أي منها بل المقصود أن ندرك المكان والزمان الذي ينبغي أن نمارس فيه القتال، وهو مواجه العدو المحارب، وليس مجرد الاختلاف في الرأي أو الدين أو العقيدة.

إن النبي الكريم هو من نزل عليه قول الله تعالى: فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين، وهو الذي نزل عليه قول الله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وهو الذي نزل عليه قول الله تعالى وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، ولكنه مع لم يقاتل كل مشرك ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي بصاع من شعير مما يعني أن اليهود وقد كانوا كفاراً كانوا موجودين في المدينة وفي وضع اقتصادي قوي بحيث يقترض منهم الرسول الكريم الذي هو رئيس الدولة!!

جهاد الدفع وجهاد الطلب

والفقهاء يقسمون الجهاد وفق أدلة الشرع إلى نوعين: جهاد الدفع وجهاد الطلب، فجهاد الدفع هو الدفاع عن المقاصد الخمسة من الدين والنفس والعرض والعقل والمال، وهذا اللون من الجهاد تدركه اليوم الأنظمة الحديثة على اختلافها وفي كل دولة في العالم وزارة دفاع معنية ومسؤولة عن جهاد الدفع لحماية الأوطان والإنسان ورد كيد الطغيان وهو أمر لا خلاف فيه ولا مزيد عليه.

أما جهاد الطلب وهو ما يتمسك به عادة دعاة الصدام مع العالم فيتم تفسيره عادة على أنه قتال الناس لإدخالهم في الدين الحق، ويستند ذلك التعريف مباشرة إلى ما نقله الفقيه الحنبلي ابن قدامة من أن الجهاد هو قتال الناس لإدخالهم في الدين الحق، ومقتضى ذلك فإن من رسالة الجهاد أن يطارد غير المسلمين لإجبارهم على الإسلام، ولا يشير هؤلاء إلى الخيارات الثلاثة المعروفة من الإسلام أو الجزية أو السيف على أساس أن الدعوة قد بلغت الناس ولا حجة لأحد في الإعراض عن الإسلام وأما الجزية فهي خاصة بالنصارى واليهود من غير العرب، أما العرب فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وهذه أهم بعض النصوص التي يستندون إليها الذي يوجب قتال الناس لإدخالهم في الإسلام:

قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله

يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واتقوا الله

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون

والحق أن هذا الفهم غير مقبول على الإطلاق وهو يتناقض تناقضاً حاداً مع قيم الإسلام الكبرى في العدل والرحمة والإحسان ويتناقض مباشرة مع قول الله عوز وجل لا إكراه في الدين وقوله: أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وقوله فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر، وقوله فمن شاء

فليؤمن ومن شاء فليكفر، وغيرها من النصوص التي تدعو إلى الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة وتكل أمر الحساب إلى الله سبحانه في الدار الآخرة.

وفي الواقع فإن قراءة واعية لسنة الرسول الكريم تكشف لك الموضع الذي تعثرت فيه فهوم هؤلاء وانحرفت عن السياق الصحيح للوعي الإسلامي بالرسالة الخاتمة، فقد كان الرسول الكريم يرسل دعاته في الآفاق ليقوموا بواجب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن ذلك كان يصطدم مباشرة بمواقف أعداء الإسلام الذين كانوا يحرمون على الناس مخالفة الملوك في الدين فالناس على دين ملوكها، وهذا ما قام به كسرى والحارث الغساني حين قاماً بقتل رسول النبي الكريم على الرغم من أن الرسل لا تقتل، بل على مستوى الجزيرة العربية فإن عدداً من قوافل الدعوة قتلوا بالكامل على يد القراصنة واللصوص والصعاليك، ففي يوم الرجيع قتل الدعاة الثمانية الذين أرسلهم النبي الكريم على يد أشرار من العرب وفي ويم بئر معونة أرسل النبي الكريم ثمانية وثلاثين من خيار الصحابة ولكنهم قتلوا عن بكرة أبيهم على يد عضل والقارة وما نجا إلا عمرو بن أمية الضمري الذي تظاهر أنه بين الأموات، وأمام هذا الواقع فمن المنطقي أن يكون لقوافل الدعاة قوة تحميها من الحرس والجند وهذا بالضبط ما حصل حين توجهت جيوش الفتح مع الدعاة الذين كانوا يصدون عن أداء رسالتهم وتمكنوا من توفير الحماية الكافية للدعاة والمهتدين الجدد الذين كانوا يستظلون بهم في رحلة الدعوة والهداية.

ولكن هذه الحقائق تغيرت تماماً مع الزمن ولم يعد يحال بين الناس وبين أديانهم التي يريدون ، وأجمعت شعوب الأرض على مواثيق حازمة تحمي حرية التدين، واليوم يتحرك الدعاة في القارات الخمس، ليبلغوا رسالة الله، ويمنحون الفيز من الدول المختلفة للدخول وفيق شروط مقدور عليها، وتبنى المساجد في كل مكان في العالم، ويمكن لأي منظمة أن تستأجر ما شاءت من العقارات والفنادق والقاعات لإقامة الشعائر الإسلامية في كل مكان في الأرض، ولهذا الأمر بالطبع استثناءات ولكنها محدودة ولا تغير شيئاً من طبيعة الحرية الممنوحة اليوم للدعاة والمبشرين المسيحيين على السواء على الأقل في الدول الديمقراطية في أوروبا وأمريكا وأفريقيا للتبشير بالإسلام، ولا يوجد أي سبب ليكون برفقة كل داعية بندقية لإقناع الناس أو لحماية الدعاة، فحماية الدعاة هنا لا تتم ببنادق المجاهدين بل تتم باحترام الأنظمة والقوانين السائدة في بلدان العالم المختلفة والتي توفر للزائر حق النشاط الثقافي والديني والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وحتى لا نتورط بالتعميم فهذا على الأقل هو شكل الدعوة الإسلامية في أمريكا وأوروبا وهي أكبر دول العالم الحر اليوم وفي كل هذه البلاد دعاة وواعظون ومرشدون يعملون في ظل حماية الدول التي هم فيها، ويستخدمون المساجد والجامعات والإذاعات والمحطات التلفزيونية والصحافة ويطبعون الكتب ومنهم من يحمل جنسية البلد التي هو فيها ومنهم من هو سوري أو سعودي أو أردني أو مصري يعمل وفق أنظمة هذه البلدان ولا يمكن القول إن أحداً منهم أحبر على دين غير دينه أو منع من نشر رسالته وفق القوانين التي تحكم تلك البلدان في الإقامة والعمل.

الجهاد والفتنة:

لا يوجد رسالة أشرف في الضمير الإنساني من نشر الوعي بالحجة والبرهان للتفريق بين الجهاد في سبيل الرحمن وبين الفتنة في سبيل الشيطان، وأن الوعي وحده يمكنه أن يجنب الناس جنون الحرب الأهلية، ويفرق بين رسالة الجهاد ووبال الفتنة، ويشرح لك متى يكون سل السيف جهاداً ومتى يكون غمده جهاداً، فالشريعة التي كلفتنا بمشقة النفس سل السيف لقتال البغاة والمعتدين، وكتب عليكم القتال وهو كره لكم، هي نفسها الشريعة التي كلفتك أن تكسر السيف يوم الفتنة، لئلا تكون وقوداً جديداً لنار الكراهية في الأرض.

إنها حقيقة من البداهة بمكان، ولكنني أعتقد أن ترك القتال في الفتن قد يكون أقسى من اقتحام المعركة يوم الجهاد، وهي حقائق أترك شرحها هنا للنبي الأكرم: إنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيرا من الجالس والجالس خيرا من القائم والقائم خيرا من الماشي والماشي خيرا من الساعي قال يا رسول الله ما تأمرني قال من كانت له إبل فليلحق بإبله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه قال فمن لم يكن له شيء من ذلك قال فليعمد إلى سيفه فليضرب بحده على حرة ثم لينجو ما استطاع النجاء.

وفي رواية أخرى قال: إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا القاعد فيها خير من القائم والماشي فيها خير من الساعي فكسروا قسيكم وقطعوا أوتاركم واضربوا سيوفكم بالحجارة فإن دخل على أحد منكم فليكن كخير ابني آدم، ثم تلا قول الله: لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين!![50]

من المؤكد أن هذا اللون من الخطاب لن يمر بدون نقد، وسيبدو لبعض الناس تماهياً في الاستخذاء وربما فراراً من الزحف، وسيتم تفسيره على أنه سذاجة سياسية، وربما مؤامرة لتمرير مشاريع التقسيم والتفتيت، وطرح الوهن في عزيمة أتباع المذهب أو الطائفة، ولكن قراءة في العمق لخطاب النبي الأكرم تجعلك تدرك أنه لون من أشرف الجهاد الذي جاء به الكتاب وأكدته السنة المطهرة، ولا أشك أبداً أن حمام الدم العراقي الذي انفجر في العراق لن يندمل بصيحات مثل: هيهات منا الذلة، ويا لثارات الحسين!! ولا بشعارات من مثل: تقحّم لعنت أزيز الرصاص وجرب من الموت ما يقسم!! وسيمضي القتل يجر القتل حتى تنثلم السيوف وتفرغ المخازن، وهو ما لن يسمح به المحتل أبداً، فالقوم أسخياء باذلون، وخزائنهم ملأى بصناعة الموت، وسينفقون من موازناتهم لتبقى شعلة الموت موقودة، وسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، ولن يحسم أمر الدم في العراق إلا حين نملك الجرأة والإرادة لتطبيق مذهب ابن آدم الأول، قال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله أرأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده ليقتلني قال فقال رسول الله: كن كخير ابني آدم وتلا يزيد " لئن بسطت إلي يدك: لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين.[51]

---

[50] سنن الترمذي ج4 ص 261

[51] سنن أبي داود ج4 ص114

أحكام الجهاد والصيال

لا شك أن الجهاد لا يصح تحت راية عمية ولا بد له من راية بصيرة ويجب أن يكون تحت راية من بايعه المسلمون بيعة صحيحة، ولا يحق لأحد مهما كان فقيهاً أو عالماً أن يأخذ بيعة الجهاد من الناس، فبيعة الجهاد هي حق ولي الأمر وحده الذي انعقدت بيعته بوجه صحيح على الأمة.

وعلى سبيل التوضيح فإن الإمام أبا حنيفة مثلاً كان يعلم الجهاد وله فيه فقه محكم متين، والإمام الشافعي كان يعلم الجهاد وله فيه فقه محكم متين ولكن بيعة الجهاد لم تكن لهما وأولى من الرجلين ببيعة الجهاد الحاكم ولو كان فاسقاً، وكانت بيعة الجهاد للوليد بن يزيد ولمروان الحمار ولأبي العباس السفاخ وأمثال هؤلاء أيام أبي حنيفة على الرغم من أن أبا حنيفة أتقى وأبر وأورع وأحكم، ولكن بيعة الجهاد لولي أمر الأمة دون سواه، والأمر نفسه في سائر علماء الإسلام الأحلاء، ولا نعرف أن أحداً منهم أخذ على الناس بيعة الجهاد، وإنما كانوا يعلمون الجهاد ويدعون الناس إلى الطاعة لأولياء الأمر بالمعروف والإحسان.

ولكن بعض المتشددين يذهبون إلى القول بأن القتال اليوم الذي يخوضونه ضد المخالفين من المسلمين هو ما قرره الفقهاء تحت باب دفع الصائل، والمقصود هنا هو الدفاع عن النفس فلا خلاف أن من تعرض للعدوان فهو معذور في القتال ولو كان بدون إذن الإمام أو تفويض العلماء لأن الصائل قد يباغتك في أي مكان ومن غير المعقول أن تنتظر إذناً للدفاع عن نفسك، بل تقاتل الصائل بأي سلاح توفر لك فإن قتلته فأنت بريء وإن قتلك فأنت شهيد.

الأصل الذي يرسم واجب المسلم في الفتن هو قوله صلى الله عليه وسلم: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، وأمام نص صريح صادم كهذا لا يحتمل أي تأويل، ثارت سلسلة من التساؤلات الكبيرة ، وتناوب الأصحاب على استيضاح الأمر من الرسول نفسه، وقال قائلهم: يا رسول الله هذا القاتل فماذا ذنب المقتول؟؟؟ والجواب النبوي لم يتأخر عن البيان وكشف النبي الكريم: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه!![52]

وهكذا فقد وقفت الشريعة موقفاً صارماً قاسياً في رفض الاقتتال الداخلي، واستخدمت أقسى عبارة تهديد ووعيد في حق المنغمسين في القتال الداخلي: الوعيد بجهنم للقاتل والمقتول جميعاً، وكان ينبغي لأمة تؤمن بربانية مصدر التشريع أن يصعقها هول الوعيد هذا فتكسر السيوف حال الفتن، وتعتزل الناس!!

ليس التكليف بترك السيف في الفتن أمراً سهلاً بل هو بكل تأكيد أقسى من الأمر بامتشاق السيف يوم المعركة، أو قل إن شئت إن الأمرين في الشدة والعناء سواء، ولكن علينا أن نتذكر أن الشريعة التي

---

[52] صحيح البخاري ج1 رقم 20

أمرت بسل السيف يوم الجهاد أمرت بكسر السيف يوم الفتنة، وقد جاءت بيانات النبي الكريم واضحة صريحة في ذلك، حين جاء حذيفة بن اليمان يسأل النبي الكريم عن موقف المؤمن أيام الفتن:

قال حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنّا كنا في جاهلية وشر، فأكرمنا الله بمبعثك فهدانا إلى هذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: **نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.**

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك يا رسول الله؟ قال: **تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.**

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: **تعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك.**[53]

والأمر هنا صريح وواضح في وجوب اعتزال الفتنة كلها مهما بدا لك هذا الخيار مرهقاً بالأوهام فإن الأمر الذي لا شك فيه أن المسلم مأمور بالهرب من الفتن، وقد قال صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتتبع بها شعف الجبال يفر بدينه من الفتن.[54]

إن الخروج من مستنقع الفتنة وإن بدا مطلباً سلبياً ولكنه في العمق أكثر من إيجابي، وهو يكشف لك عن إرادة واضحة للرسول الأعظم لحقن الدماء مهما كانت المبررات والأهداف، ولو كان ذلك على حساب الكرامة الشخصية للأفراد وهو الأمر الذي اقتحمه البيان القرآني إلى الغاية بالتعبير الصريح: أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**!!**

ولعل التساؤل الأقرب هنا: ما الفرق بين اعتزال الفتن وردّ الصائل وقتال البغاة؟

ولكن دليلين آخرين ينهضان مقابل هذا الدليل الجلي ويؤدي كل منهما إلى الارتباك في منهج التصرف وقت الفتن، الأول: هو قول الله تعالى: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين.

والآخر قوله: من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد، وواضح أن الأمر هنا يشتمل على دعوة للدفاع عن النفس في مواجهة الباغي، ولو أدى ذلك إلى إراقة الدماء**!!**

ويبدو لأول وهلة أن كلاً من النصين كاف لنسف مقولة المقاومة السلبية من أساسها ولإغراء الأمة باقتحام سبيل المقاومة المسلحة مع كل معتدي بدون تفريق بين الصديق والعدو**!!**

---

[53] صحيح البخاري ج 6 رقم 2595
[54] صحيح البخاري ج2 رقم 1201

ولكن بالآلة الأصولية نفسها فإن علينا أن نقرر من هو الباغي؟ وكيف لنا أن نجزم أي الفريقين هو من أمر القرآن بقتاله على أساس أنه من البغاة، ولكن قراءة متأنية لنصوص الشريعة تجعلك تدرك أن الخطاب هنا موجه للأمة بمجموعها عندما تكون موحدة ولها إمام انعقدت بيعته بوجه صحيح وليس له معارض، فهاهنا فإن الأمر القرآني موجه إلى القيادة التي حظيت ببيعة تامة لا نزاع فيها، وأصبح لها مؤسسة قضائية تحظى باحترام الجميع، وفي الآية نفسها النص الصريح بذلك وهو قوله تعالى: واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم، ومقتضى ذلك أن النبي الكريم بوصفه قائداً إجماعياً للأمة هو من يحدد البغاة ويأمر بقتالهم، وهنا نفترض بأن الدولة موحدة مستقرة فوقع نزاع بين قبيلتين أو قريتين أو حزبين أو حركتين فهاهنا يتعين على قيادة الأمة التي حظيت بالإجماع أن تبدأ بالصلح بين المتقاتلين فإن أبت إحداهما فتقاتل التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل.

وهكذا فلا يمكن على الإطلاق إعمال هذا النص في ظروف الانقسام والفتنة حين لا يكون للأمة رأس واحد محل إجماع الكافة، وهنا بالضبط أجاب النبي الكريم على سؤال حذيفة حين قال: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال تعتزل تلك الفرق كلها، فليس لمن لم يحظ بإجماع الأمة أن يكون حكماً في تحديد الباغي من الفريقين، وهنا نستأنس بموقف الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص الذي اعتزل الفتن كلها على الرغم من أن الباغي كان محدداً بما يشبه النص، حين قال الرسول الكريم لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية، ومع ذلك فإن سعداً لم ير الجهة المرجعية التي يمكنها تطبيق نص كهذا فاختار اعتزال الكل وكان أكثر الصحابة حكمة ونجاحاً وتوفيقاً.

أما النص الآخر في أن من قتل دون ماله أو عرضه فهو شهيد فهو ما درسه الفقهاء الكرام تحت عنوان: دفع الصائل والصائل هو المعتدي الذي يبلغ فناء دارك ويهم بالاعتداء عليك فهنا يشرع لك الدفاع عن نفسك، ولكن هذا الدفاع مقيد أيضاً بأدلة الشرع، فهو أولاً خاص بمهاجمة الصائل نفسه، وهو من يتحرك مباشرة للاعتداء عليك، والتعبير بالصائل دقيق وضروري ولا يجوز أن يشمل أكثر من الصائل نفسه فلا يجوز هنا قتال أهل الصائل أو فصيل الصائل أو شريك الصائل أو حزب الصائل، ولا حتى الآمر بالصيال، وذلك لأن دفع الصائل استثناء من الأَصل وضرورة ينبغي أن تقدر بقدرها، ولا يجوز التزيد عليها.

وزيادة على ذلك فإن الفقهاء نصوا هنا على عدد من الأحكام لضبط سلوك الأفراد، لأن دفع الصائل استثناء من الأصل فالأصل أن الدولة هي من يقيم الأحكام والعقاب، ولكن هنا جاز للأفراد ذلك ضرورة، لأن الصائل قد يبلغ مراده من الضحية قبل أن يصل الغوث من الدولة، فيجب التقيد بشروط صارمة في ذلك ومنها أن الصائل إذا أمكن دفع شره بالصياح والاستغاثة لم يجز ضربه بالعصا وإن أمكن دفعه بالعصا لم يجز ضربه بالسلاح وإن رده ضربه في رجليه لم يجز ضرب رأسه، وهذه كلها يقدرها المدافع الذي يتعرض للاعتداء!!

ومع ذلك كله فلنتأمل في معنى ثناء النبي الأكرم على الشهيد المقتول وعدم ثناءه على المدافع القاتل، مع أنه معذور ولا حرج عليه، ولكن رسول الله ذكر المقتول هنا الذي يموت في دفاعه عن عرضه وماله ودينه**!!**

وهكذا فإن أحكام دفع الصائل لا يجوز أبداً أن تكون تبريراً لما يحصل اليوم من الترصد والاغتيال والثأر والانتقام على أساس أنه رد للصائل، وهي الدعوى التي يستخدمها اليوم بالتساوي طرفا النزاع من المتورطين في القتال الداخلي الفلسطيني.

أعتقد أنه بعد تحرير هذه المسائل في الشريعة لم يعد من حق أحد أن يقول في تبرير الفتنة الطاحنة إنها حق شرعي في الدفاع عن النفس يبيح له الترصد والاغتيال والثأر لمخالفيه مهما زين ذلك بأعذار ظالمة أو فاجرة.

التكفير وهدر الدم

ليست المشكلة في التكفير بل المشكلة فيما يستتبع ذلك من تهديد لحياة الناس، فلو كانت المشكلة في إعلان الآخر غبر مقبول دينياً لكان الأمر في غاية اليسر والسهولة، فليست لدي شخصياً مشكلة أن يقال لي أنت كافر بصلب المسيح أو كافر بطبيعته اللاهوتية فهذه مسألة لا أنكرها ولا تزعجني لأنني أعلم أنه لن يكون لذلك تبعات أخرى، ولدي جوابي الذي يفهم منه صديقي المسيحي أنني أختار موقفي الفكري دون أي إساءة للسيد المسيح أو لمن يتبعونه بل هي طريقة أخرى في تفسير محبتي للسيد المسيح وبيان عناية الله تعالى به وحمايته له.

ليست المسألة إذن في التكفير بل فيما شاع لدى الناس أن الكفر يهدر عصمة الدم، وبالتالي فإن من يختار موقفاً آخر يختلف في الاعتقاد فإنه يقامر بعنقه ويبيح للسلطان أن يستتيبه ثلاثاً ومن ثم أن يأمر بضرب عنقه، وهو كلام جد خطير ولو لم يكن هناك سلطان ولا والي ولا إمام، إذ ما أسهل أن تنتج الثقافة التكفيرية محتسبين مأجورين لتنفيذ هذه الأحكام بالبسالة المطلوبة ويحصلون على آلات القتل مأجورة أو غير مأجورة، إنما نقتلكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

فإلى أي حد يصح القول بأن الكفر يستلزم هدر الدم، وبالتالي إقامة حد القتل على الكافر؟؟

لم يقعد التكفير تاريخياً عن ممارسة الموت، وفي ضحايا التكفير الأول أسماء كبيرة أبرزها علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، فقد امتدت إلى الراشدين يد التكفير وقال أعداء عثمان اقتلوا نعثلاً فقد كفر، وقال أعداء علي رضي الله عنه في الثناء على قاتله المجرم عبد الرحمن بن ملجم:

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً

إني لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانـــــاً!![55]

وبدون أدنى تعليق فإذا كان التكفير قادراً على غسل الأدمغة إلى حد تصنيف صهري النبي الكريم الإمامين الراشدين هدفاً مشروعاً لإقامة حد الردة، فمن دون أدنى شك سيتم إدراجنا جميعاً في هذه القوائم بدم بارد، ولن يكون أحد بمنأى عن سيف الغدر الذي ينصبه التكفير للناس، ويوردهم موارد الهلاك.

وحتى لا نغرق في الأوهام فإن الكفر الذي قررت الشريعة أنه يستوجب القتل والقتال هو الكفر المتصل بالحرابة والعدوان، وهو حالة مفهومة تماماً حين كانت الأمة في حرب مع كفار قريش، وحين يخرج رجل كعبد الله بن خطل فيعلن خروجه من الإسلام ويلحق بمعسكر قريش ويغري قريشاً بحرب الإسلام ويكرس نفسه عدواً للأمة يمنح أسرارها لعدوها ، وحد الردة هنا الذي قررته الشريعة وطبقه الفقهاء يمكن فهمه تماماً إذا تذكرنا الطيار السوري المرتد بسام عدل الذي ركب طائرته قبل عشرين عاماً ولحق بإسرائيل وخان دينه ووطنه وهو يمضي اليوم أيامه في السجون الإسرائيلية بعد سلسلة من الجرائم ارتكبها تجاوزت ما يقبله الصهاينة أنفسهم من خائن محترف.

أعتقد أنه بهذا المعنى يجب أن نفهم كل ما قالته نصوص الشريعة في حد الردة، وهنا ستجد أنك مؤيد بالنقل والعقل والشرعة الدولية وحقوق الإنسان في معاقبة مجرم من هذا الطراز.

ولكن تحرير حكم الردة على أساس أنه الاختلاف في الموقف الفكري يعتبر من وجهة نظري أبلغ إساءة لقيم الإسلام في الحرية والرحمة والعدالة، وهو يتناقض بالكلية مع سلوك المسلمين إبان صعودهم الحضاري يوم كان المخالف في الرأي يحظى بعناية الدولة المسلمة وحمايتها مهما كان اختلافه حاداً إذا لم يتجاوز الجانب الفكري والنظري، وهنا فمن المناسب أن نتذكر جهد خلفاء الإسلام الكبار كأبي جعفر المنصور والمأمون في تنظيم الندوات الصريحة مع الدهريين الذين أنكروا بالمطلق وجود إله وقالوا العالم مادة!! حين كانوا يعقدون المناظرات على شواطئ دجلة بإشراف وحضور مباشر منهم ليستمعوا إلى فقهاء الإسلام وهم يحاورون المخالفين بالحجة والبرهان دون أي آلة قهر أو قمع، وبعد ذلك كان المخالفون يعودون إلى بيوتهم ويمارسون حياتهم ويكتبون مزيداً من كتبهم وأفكارهم، وكان الخلفاء يشترون بالذهب ما يترجم من كتب اليونان والرومان مع أن الثقافة الوافدة هذه كانت لا تخفي وجهها المادي في كثير من الأحيان وتتحدث لغة مناقضة في الصميم لجوهر العقيدة الإسلامية!!

وهي حقائق دلت لها الآيات القرآنية المتضافرة في الكتاب العزيز: أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟؟ لا إكراه في الدين، وعليه فإنه لا إكراه في التقوى ولا إكراه في العبادة، ولو شاء ربك آمن من في الأرض كلهم جميعاً.

ولكن هذه الروح من إعذار المخالف في الفكر ومعاقبة المخالف الذي يستخدم العنف توشك أن تنطمس في غبار الفكر التكفيري الذي يستبيح اليوم دماء المجتمع بأسره على أساس ظواهر

---

[55] السيرة النبوية للذهبي ج5 ص280

نصوص تقتطع من سياقها ومواردها، وسأكتفي هنا بتقديم بعض الأمثلة السريعة مما يمكن قراءته كل يوم لفهم كيف تحولت مسائل حكم الردة من مسؤولية قانونية لحماية أمن الأمة إلى راديكالية متطرفة تبرر بسهولة استباحة الدماء والأعراض.

عادة ما يتم الاستشهاد بالحديث المشهور وفيه أن أسامة بن زيد واجه رجلاً من المشركين فلما تمكن منه قال الرجل اشهد أن لا إله إلا الله ، فكف عنه أسامة ولكنه عاود بعد ذاك القتال حتى تمكن منه أسامة فنطق الشهادتين ثانياً ولكن أسامة لم يكف عنه بل قتله بالسيف وحين عاد إلى النبي الكريم فأخبره بما جرى، غضب النبي الكريم وقال أقتلته بعد أن قالها**!!** قال إنما قالها تعوذاً من الموت، فغضب الرسول وقال وهل شققت عن قلبه؟ وهل شققت عن قلبه؟ كيف تصنع إذا جاءتك لا إله إلا الله تحاجك يوم القيامة؟؟

ولكننا إذ نورد عادة هذا الحديث نواجه سؤالاً طبيعياً بعد ذلك وهو ماذا لو لم يقل هذه العبارة؟ فهناك بلايين البشر اليوم لا ينطقون بالشهادتين من أهل كتاب وبوذيين وهندوس وعلمانيين ولا دينيين، فهل هؤلاء مهدورو الدم، يجب قتلهم وسلب أموالهم، وهل يؤسس الإسلام لعلاقات دموية مع أمم الأرض بحيث لا يكون التعايش إلا على مبدأ أسلم تسلم وإلا ضربناك بالسيف؟

واضح أن هذا الحديث ورد في غبار المعركة وهناك يتعين أن يكون الأصل التهمة ولا خيار للعسكري وهو في موقع الحراسة في أن يكون مشرع البندقية تجاه كل قادم وأن يكون الأصل هو الاتهام والريبة والاستثناء هو حسن الظن، ولكن لا يسوغ على الإطلاق أن يكون هذا اللون من الخطاب هو الأصل الذي يحكم سائر علاقات المسلمين بغيرهم، ومن السذاجة تصور أننا نحتاج إلى هذه الكلمة لعصمة دم الآخر المخالف، بل إن القرآن الكريم ذهب هنا إلى أبعد من ذلك حين قالت الآية الكريمة : يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً، فالحديث هنا عن إيمانه أو عدم إيمانه وليس عن عصمة دمه أو استبقاء حياته.

إن خطاب النبي الكريم في عصمة الدم كان واضحاً وجلياً في آخر أيام حياته ولقائه مع الناس حين وجه خطابه بوضوح للعالم في حجة الوداع: أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام حرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب**!!**[56]

لم يقل يومها يا أيها الذين آمنوا ولا يا أيها المهاجرون ولا يا أيها الأنصار ولا يا أهل بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان وإنما كان قوله: يا أيها الناس، وهو تأييد لخطاب القرآن الكريم : من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، وهنا نلاحظ أنه لم يقل من قتل مؤمناً أو مسلماً أو سنياً أو شيعياً وإنما قال من قتل نفساً.

وهكذا فإن الفكرة الشائعة من تلازم الكفر أو الشرك بضرب الرقاب ليست منطقاً إسلامياً بأي وجه من الوجوه وإنما هي حصيلة قراءة غبية لمقاصد الشريعة وخلط فاضح بين أحكام الحرب وأحكام السلام.

---

[56] سيرة ابن هشام ج2 ص 411

من فتاوى التكفير

وفي إشارة ضرورية لأسباب انتشار ثقافة التكفير فبالإمكان الإشارة إلى فتوى مشهورة نرويها عادة دون الانتباه إلى الجانب السلبي الذي قد ينحرف إليه فهم الناس، وهي فتوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نواقض الإسلام العشرة، وهي فتوى اشتهرت بين الناس اشتهاراً عظيماً ويتم اليوم طباعتها بشكل مستمر ونراها أحياناً معلقة على جدران المساجد، وكان قد نص فيها على أن هذه العشرة خصال كل واحدة منها مكفرة وهي تستلزم حكم الردة في حق من ارتكب واحدة منها وبالتالي هدر دمه وماله**!!** وعد منها الآتي:

أما نواقض الإسلام فهي كثيرة وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى في باب حكم المرتد أن المسلم قد يرتد عن دينه بأمور وأنواع كثيرة من النواقض التي تحل دمه وماله ويكون بها كافراً كفراً أكبر خارجاً من الإسلام ومن أخطرها وأكثرها وقوعاً عشرة نواقض، وعد من هذه العشرة: **الشرك** في عبادة الله تعالى ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو لقبر، وراح يذهب في تفصيل الشرك إلى حد قوله ومن الشرك شرك المحبة لغير الله**!!**

وعد من أنواع الكفر الأكبر أيضاً: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم، ويسألهم الشفاعة، ويتوكل عليهم، فقد كفر إجماعاً، أما الثالث فعد منه من لم يكفّر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر**!!** وعد من المكفرات أعظم الكفر من اعتقد أن هدي غير النبي أكمل من هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ويدخل في هذا الناقض: من اعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسنها الناس أفضل من شريعة الإسلام، أو أنها مساوية لها، أو أنه يجوز التحاكم إليها ولو اعتقد أن الحكم بالشريعة أفضل، ويدخل فيه أيضاً من يرى أن إنفاذ حكم الله في قطع يد السارق أو رجم الزاني المحصن لا يناسب العصر الحاضر، ويدخل في ذلك أيضاً كل من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير شريعة الله في المعاملات أو الحدود أو غيرهما وإن لم يعتقد أن ذلك أفضل من حكم الشريعة**!!**[57]

ويمكنك قراءة عجائب أشد فظاعة أن تعود إلى محرك بحث غوغل والسؤال بين حاصرتين عن كلمة : "نواقض الإسلام" أو "هدر دمه وماله" وعند ذلك ستعرف تماماً إلى أي مدى يصبح دم الناس وأعراضهم ملهاة مبكية لدى تيار التكفيريين الذين يزعمون أنهم ينتمون إلى دين نص قرآنه الكريم بوضوح أن من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً**!!**

وعلى سبيل المثال فبالإمكان قراءة كتاب الشيخ الطرطوسي: التكفير شرع الله فأين تذهبون؟**!** على الرابط: http://www.altartosi.com/articles/index.html وبالإمكان أيضاً الاطلاع على موسوعة كاملة في ثقافة التكفير في موقع دار الإسلام على الأنترنت للشيخ سعيد بن رهف القحطاني.

57

وعندما تقرأ على سبيل المثال نواقض الإسلام العشرة التي ينص فيها محمد بن عبد الوهاب أنها توجب هدر دمه وماله ستكتشف للتو أنك ارتكبت ثلاثة أو أربعة منها على أقل تقدير!!

وببساطة يمكن هنا لأتباع التيار التكفيري أن يتم تكفير المجتمع برمته، على أساس ارتكاب احد هذه النواقض.

فالاحتكام إلى قانون وضعي يعني ببساطة قبول القوانين التي تشرعها البرلمانات ومجالس الشعب، وهو وفق قائمة نواقض الإسلام كفر أكبر ولو اعتقد أن الشريعة أفضل!! ويدخل فيها من لم يجزم بكفر الكافرين أو شك في كفرهم، ولعلك تعلم بأنه لا يقصد هنا بالكافرين أعداء الأمة من الصهاينة بل يقصد بالطبع شرائح كبيرة من المواطنين الذين نتقاسم معهم رغيف الخبز، ويدخل فيه من توجه إلى قبر بالتعظيم أو استغاث به أو ذبح عنده، وفي ذلك يدخل حكماً من يرى العدول عن قطع يد السارق إلى سجنه!! وعن رجم الزاني إلى حبسه، وأمثال ذلك فهذه كلها يقال فيمن فعلها عاص آثم، ولكن يقال فيمن اعتقدها كافر مرتد.

والأمثلة هنا تتوارد بكثرة فمن ترك الصلاة مثلاً صنف فاسقاً، ولكن من شك في وجوبها أو مواقيتها فقد كفر كفراً أكبر وحل دمه وماله!! ومن تركت الحجاب صنفت فاسقة ولكن من شكك في وجوبه فقد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، وبالتالي فقد كفر كفراً أكبر، وحتى لا أتهم بالمبالغة فإنني أحيل هنا على سبيل المثال إلى ما كتبه تقي الدين الحصني في باب حكم تارك الصلاة، وهو كتاب لا يزال يطبع وينشر عندنا في سوريا، ويتم اعتماده مقرراً تدريسياً، حيث ينص مباشرة على وجوب قتل تارك الصلاة، ولن يغني شيئاً عند التكفيريين أن تقول لهم هذه مسؤولية الحاكم ولها شروطها وضوابطها إذ ما أسهل أن يقول تيار التكفير إن الحاكم قد فرط في هذا الواجب الشرعي ولم يقم بقتل شعبه كما هو حكم الله!! وبالتالي فهذه مسؤولية شباب الجنة الأبرار ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

هل يعقل أن تتصور أن تكون هذه الثقافة التكفيرية تنتمي إلى الدين العظيم الذي قال فيه الله سبحانه: ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً؟؟

إنني أعتقد بصراحة أن محاسبة الناس على شأن اختيارهم الاعتقادي ليست شأن الناس ولا شأن الدولة، ولا هي شأن الحاكم ولا شأن المحكوم، إنها فقط شأن الله، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون

هل سندرك أن مسؤولية المواجهة مع التكفيريين هي في المقام الأول مسؤولية الخطاب الديني الشجاع، الذي سيسأله الله والتاريخ عن مسؤوليته في التصدي لتحريف الغالين وانتحال المبطلين.

الجهاد والفتوح...

تبرر ولا تكرر

تذكر الفتوح في الضمير الإسلامي بغاية الإجلال والإكبار، وتقدم للناس على أنها أعظم ما أنجزه جيل الصحابة والتابعين، وأن الفتوح كانت في الواقع هي التمهيد الحقيقي لقيام الحضارة الإسلامية، وهي الاستجابة الطبيعية لأوامر الله تعالى بالجهاد.

ولا يمكن لأي تيار إسلامي أن يقفز فوق هذه الحقيقة، وتسكن ذكريات الفتوح في الأفق الأعلى من ضمير المسلم، ويتوق المسلم عادة إلى تلك الأيام المجيدة بوصفها أيام عزة الإسلام وانتصاراته.

وتؤخذ الفتوح جميعاً عن قوس واحدة، فهي مبررة ومشروعة ومجيدة بذات الروح الانفعالية من فتح مكة إلى فتح العراق والشام إلى غزو السند وجيحان وفتح الأندلس وفتح القسطنطينية وحصار فيينا، على الرغم من التفاوت الهائل في هذه الحروب في مقاصدها وغاياتها وظروفها والأهداف المعلنة فيها للفاتحين والمحاربين.

ولكن هذه الدراسة تذهب إلى رفض المنطق الكلاني في تبرير الفتوح بحيث تكون كلها مجيدة ومبررة، وبحيث تكون الحقيقة والعدالة في جانب المجاهدين، ويكون الظلم والتوحش والهمجية في سلوك الطرف الآخر، وتصر هذه الدراسة على أن الفتوح حروب كسائر الحروب، كان بعضها مجيداً ومبرراً وكان الآخر عدوانياً وانفعالياً، فيما كان كثير من هذه الحروب يتم في إطار فائض القوة والرغبة بالتوسع والنفوذ.

يمكن القول إن الجهاد بمعنى غزو بلاد الآخرين ودعوتهم إلى الإسلام بمنطق الإسلام أو الجزية أو السيف قد توقف منذ العصر الأموي، وتحديداً منذ أيام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، الذي حقق في فترة قصيرة إصلاحات جذرية في فهم الجهاد، وأمر بتأسيس محكمة خاصة لمواجهة الفتوحات التي حققها بعض الأمويين، واشتهر حكم القاضي الأموي جميع بن حاضر بوجوب انسحاب الجيش الإسلامي من سمرقند بعد فتحها، والإذن بعودة الحكم القديم إليها، وهو ما اعتبر موقفاً ثورياً ضد تقاليد الحروب السائدة آنذاك....

والحقيقة ان الحروب التي خاضها المسملون في البلاد العربية كانت على نسق الشائع من الحرب في تلك الأزمنة، وغاية ما يمكن قوله إن هذه الحرب التي خاضها المسلمون تحت راية الجهاد

كانت تحكمها معايير أخلاقية، كما قرأناها في وصايا أبي بكر للفاتحين أو في العهدة العمرية، ومع أن هذه الوصايا تعتبر تطوراً حقيقياً في قانون الحرب، ولكن ليس من العقل أن نقول إنها حولت الحرب إلى عمل أخلاقي، بل ظلت الحرب تشن على الأمم بدافع فائض القوة، مع الحرص على تطبيق قوانين الرحمة على المغلوبين.

وغاية ما يمكن تبرير حروب الفتح في الشام والعراق بأنها كانت لمقاصد سياسية عادلة، تندرج في إطار تحقيق الاستقلال العربي لتلك الشعوب من الحكم الفارسي أو الرومي، وعلى الرغم من هذا فإن معظم الكتاب الإسلاميين لا يقبلون التعليل بهذه الغايات الوطنية والقومية، ويصرون على أن الجهاد تحكمه غاية واحدة هي امتثال ظاهر القرآن الكريم انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، والشوق إلى الجنة ونعيمها وحورها وقصورها، وأن المجاهدين لم يخطر ببالهم أبداً انهم يحاربون الامبريالية والاستعمار، أو أنهم كانوا جزءاً من مشروع الوحدة العربية، ويرى كثير من زملائنا من الفقهاء أن الجهاد بهذا المعنى تقزيم لرسالة الفتوح العظيمة التي كانت بدافع إخراج الناس من الظلمات إلى النور، أو بالتحديد إخراجهم من الأديان الزائفة والمنسوخة إلى دين الإسلام، أو بتعبير أدق وفق سفراء الفتح الإسلامي إن الله أمرنا بإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار.

ولكنني مقتنع تماماً بأن قادة الجهاد الإسلامي في عصر الفتح أيام الراشدين كانوا يتحركون بشكل رئيسي بدافع تحرير أرض العرب من الرومي والفارسي، وكذلك لإتاحة المجال لنشر الدعوة الإسلامية التي وقف الحكام سداً منيعاً دونها، وأصبحت الحرية الدينية ممنوعة تماماً على الشعوب المغلوبة.

وفي هذا السياق أنقل ما كتبته منذ سنين بعنوان المشروع السياسي لرسول الله:

مذ كان طفلاً غدا مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة قريش، كان يدهش ويتأمل: الكلام عربي والعادات عربية والأنساب عربية، والوجوه عربية والطعام عربي والأسماء عربية، كل شيء هنا بين الحجاز وبصرى عربي حتى الصميم إلا الحاكم فإنه مستورد من بيزنطة!! كيف يمكن لأمة أن تحقق نهضتها وهي أسيرة إرادة الغرباء؟

من غاره في حراء كان يطل على عذاب قومه، لقد استقرت الحياة بشكلها الرتيب، وتمكن تجار الدين والسياسة من جعل الكعبة التي هي عاصمة الروح دكاناً للآثام تباع فيه الآلهة والوهم، ويدعى الناس إلى الاستكانة والخضوع لسدنة الكعبة في أرض الحجاز، فلا تشغب صحراء الحجاز على بني الأصفر وحلفائهم من غسان، وبحسبهم من وحدتهم العربية إيلاف قريش في رحلة الشتاء والصيف، يأتون إلى أرض الشام كسياح متفرجين، ولا بأس في بعض الأحيان من أن يتصرفوا كتجار شنطة يوقرون إبلهم، من دون أن يكون لهم حق التدخل في السياسة والإعمار والعدالة، حيث كان ذلك كله يدار من بيزنطة ويتم لمصلحة القيصر.

لم يكن يقنعه هذا وأعلن مشروعه قرآناً عربياً لقوم يعقلون، وذكراً له ولقومه العرب، وقال بوضوح إذا مات كسرى فلا كسرى بعده وإذا مات قيصر فلا قيصر بعده، وتحدد مشروعه السياسي بوضوح تحرير بلاده ومن ثم بناء علاقات صحيحة ومسؤولة مع أمم الجوار من فرس وكرد ورم وحبش وهند، لقد بدأ أولاً بتوحيد جزيرة العرب، ثم أطلق رجاله إلى بلاد العرب التاريخية التي تمتد تقليديا من الكويت إلى موريتانيا، هي أراض لم يحصل أن زارها النبي الكريم من قبل، ولم تكن لديه بالطبع خرائط لجغرافيا أرض العرب ولكنه كان يدرك تماماً أن هناك كفاحاً قدمه الآباء السوريون من فينيقيين وكلدان وبابليين على شواطئ المتوسط من أنطاكية إلى غزة إلى الإسكندرية إلى قرطاج كان يحمل إلى تلك الشواطئ المترامية الأطراف شوق الصحراء العارم، وحديثاً دافئاً عن بيت المقدس وعن الكعبة بيوت الله الطاهرة التي بناها إبراهيم جد العرب.

كان رجاله يعرفون تماماً أين ينبغي أن تمضي رسالة الحرية، فوق أرضهم العربية التي عانت طويلاً من الاحتلال والقهر، وفي إشارة واضحة للبوابة الشرقية قال عمر: وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم!! ومن جهة الجنوب فقد أرسل علياً ومعاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ولم يكن ليقبل اليمن السعيد إلا بكامل ترابه من باب المندب إلى بحر العرب، وفي الجانب الأعلى من وطنه العربي كان يقول اتركوا الترك ما تركوكم فإنه لا يسلب أمتي ملكها وما خولها الله إلا بنو قنطوراء! أما حدوده الشرقية فقد أوضحتها رسالته إلى المنذر بن ساوى الذي سمي والياً على ملتقى البحرين بحر العرب والخليج العربي وهي البلاد التي تشتمل على ما بين عمان والكويت، أما حدود أمته في الغرب فقد أعلنها يوم قال ستفتح لكم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً وهو نضال تحرري هائل اتصل بكل عاصمة بناها الفينيق العربي حتى شواطئ عقبة بن نافع، وهناك مضى رجاله في سبيل إحياء ما تصرم من عناء الآباء الفينيق العرب المنزرعين منذ فجر التاريخ في تلك الشواطئ، والذين بنوا مدائن الشمال الإفريقي وانقطعت وشائجهم مع أرض العرب وتبربرت ألسنتهم وتأمزغت وقد انقطع بهم وبأبنائهم السبيل للوصال مع أرض الأنبياء.

قد يبدو هذا الخطاب سمجاً ثقيلاً يستخدم منطقاً خشبياً ويخلط بين مقاصد النبوة ومشروع التحرر، ولكن هل كانت النبوة إلا مشروع تحرر، وهل يمكن لأهل التوحيد الذين عاشوا في كلمة لا إله إلا الله أن يقبلوا الخضوع للطاغية الرومي أو الفارسي؟

هل نسيء إلى رسالته إذا قلنا إنه كان يحمل هماً قومياً وطنياً في جوهر رسالته؟ بعض الأصدقاء يظنون أن أي كلام عن رسالة النبي الوطنية أو القومية هو التفاف على مكانه كنبي مرسل، وكأن الأنبياء أشباح قادمون من الغيب لا شأن لهم بعناء الإنسان وكفاحه، في حين أن رسالة الأنبياء في نقل الناس من الذل إلى الحرية ومن الجهل إلى العلم ومن الفرقة إلى التوحد هي جوهر ما نص عليه القرآن الكريم: كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .

ولكن هذه الروح الواقعية في فهم رسالة الفتح الأول، والبعد الإنساني والاجتماعي تحرير أرض العرب من المستعمر لم يتم نشرها ثقافياً في المجتمع الإسلامي ولا تظهر كذلك في كتب الرواة، واختار كتاب التاريخ أن يرسموا صورة الفاتحين بلون آخر، بصورة المحارب الفاتك الذي لا يغمد سيفه ولا ينزل عن حصانه، على حد قول الشاعر الجاهلي:

بغاة ظالمين وما ظلمنا، ولكنا سنبدأ ظالمينا!!

حيث تقدم الروايات المجاهدين محض محاربين بواسل، لا يعنيهم إلا النصر على الكفار ظالمين أو عادلين، وهدم أديانهم ومعابدهم ورفع راية الإسلام مكانها حتى يكون الدين كله لله.

ومن المفيد أن نستعرض هنا بعض روايات التاريخ الإسلامي في أمر غايات الجهاد، وللأسف فإن هذه الروايات لم تكن مهتمة بتقديم أي تفسير أخلاقي لهذه الحروب، بل كانت تقدم خطاباً انفعالياً لا رسالة له إلا بسط السيطرة والنفوذ، وهذا ما يجعل هذه الحروب بدون غايات أخلاقية، أو على الأقل لا تشبه حروب النبي الكريم التي كات جميعها في سياق الدفاع عن الأمة أو رد كيد المعتدين.
وأختار هنا رواية ابن كثير في البداية والنهاية، حبث نقل حوار المغيرة بن شعبة مع رستم قائد الفرس، قال المغيرة لرستم: إن الله يعث إلينا رسولا وقال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز. فقال له رستم: فما هو ؟ فقال أما عموده الذي لا يصلح شئ منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والاقرار بما جاء من عند الله، فقال ما أحسن هذا ؟ ! وأي شئ أيضا ؟ قال وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله. قال: وحسن أيضا وأي شئ أيضا ؟ قال: والناس بنو آدم وحواء، فهم أخوة لاب وأم، قال: وحسن أيضا. ثم قال رستم: أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون عن بلادنا ؟ قال: إي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة.
ولكن الرواية الأكثر شعبية في رسالة الفتوح هي ما نقله ابن كثير ومعظم رواة الفتوح عن ربعي بن عامر، حيث مضى ذلك الفتى المحارب يسخر من كل المظهر الحضاري الفارسي ويقدم رسالة لا لبس فيها أن غاية المجاهدين لا صلة لها بالتحولات الاجتماعية السياسية الإيجابية على المجتمع بل هي نضال في سبيل الآخرة، ويصف ابن كثير دخول ربعي بن عامر إلى قصر رستم الفارسي بكثير من الازدراء والتسخيف لزخارف الدنيا، والرغبة في رغد الآخرة، فقال:

فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الامتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: إئذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم ؟ فقال ان الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى

سعتها، ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله ؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الامر حتى ننظر فيه وتنظروا ؟ قال نعم ! كم أحب إليكم ؟ يوما أو يومين ؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤخر الاعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الاجل.[58]

ولا بأس أن نورد هنا أيضاً ما رواه كثير من المؤرخين في حوار خالد بن الوليد وماهان صاحب الروم قبل اليرموك، فقد التقى القائدان قبل المعركة، وحين سأل ماهان خالداً عن هدفهم من القدوم إلى الشام، لم بقدم الرواة أي هدف يتعلق بالعدالة والحرية وإنصاف الناس، وإنما طرحت كتب الرواية حواراً انفعالياً هائجاً، يقدم فيه الرومي بعض الازدراء بأهداف الجيش الاسلامي ويربط ذلك بالحاجة الاقتصادية ويعرض صلحاً مالياً، فيجيب خالد بغضب: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم. فجئنا لذلك. فقال أصحاب ماهان: هذا والله ما كنا نحدث به عن العرب.[59]

والمعنى نفسه يمكن أن نقراه في كتاب أبي عبيدة إلى أهل إيلياء وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها...فإنا ندعوكم إلى شهادة ان لا إله إلا الله...فإن أبيتم فأقروا لنا باعطاء الجزية...وإن أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حبا للموت منكم للحياة ولشرب الخمر وأكل الخنزير، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلتكم واسبي ذراريكم.60

وهكذا فإن الجهاد الذي نقرؤه بعد عصر النبوة ما هو إلا حرب دينية محضة ترفع شعار الظهور على الدين كله، يحرك المقاتلين فيها توقهم إلى الجنة، ورغبتهم في القضاء على دول الكفر أياً كانت طبيعة اعتقادهم، وإجبار الناس على الدخول في الإسلام مع استثناء أهل الكتاب تحديداً بإمكان دفع الجزية والبقاء في المجتمع الإسلامي تحت ذمة المسلمين.

وعلى الرغم من أن حروب الفتح الإسلامي كانت تلتزم إلى حد بعيد قواعد أخلاقية في التعامل مع المدنيين وبشكل خاص الرهبان والشيوخ والأطفال، ولكن لا يمكن تبريرها بمنطق القانون الدولي السائد اليوم، فالعالم قرر مبدأ سيادة الدول، عبر مشوار طويل من الحروب وإراقة الدماء من ويستفاليا إلى ميثاق الأمم المتحدة وتقررت فيها من جديد مبادئ سيادة الدول واستقلالها.

---

[58] الاكتفاء في المغازي ج474

[59] البداية والنهاية لابن كثير ج7 ص 10 وتاريخ دمشق لابن عساكر ج12 ص 198

[60] فتوح الشام للأزدي 243

ومن الظلم أن نقوم بمحاكمة الغزوات التي وقعت في القرن السابع الميلادي وفق قواعد القرن العشرين، التي تحكمها وثائق السيادة والاعتراف الدولي والعلاقات الدبلوماسية بين الأمم، واحترام السياسة وترسيم الحدود وحقوق الإنسان، ودور الأمم المتحدة وآلياتها، فإنها وفق هذه الاتفاقيات حروب غزو غير مبررة، ولكنني على يقين بأنها كانت محكومة إلى حد كبير بالقيم الدينية في العدل والحقوق، وأنجزت سلسلة انتصارات وجزم المؤرخون أنه ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.

ولا أشك أبداً أن رسول الله لو أدرك زماننا لكان أسبق الأمم في بناء القانون الدولي العادل، وبناء علاقات حسن جوار واحترام متبادل، شبيه بما أسسه وحققه مع ملوك الجبشة ومصر والبحرين واليمن، ولكانت مواثيق الأمم المتحدة والإصلاح بين الشعوب والأمم تنعقد في مكة والمدينة، وكانت الدولة الإسلامية هي السباقة في توقيع مواثيق القانون الدولي واحترام سيادة الأمم وحريات الشعوب.

وفي الواقع فلا يمكن تجاهل التناقض الكبير بين مبدأ لا إكراه في الدين المقرر بنص القرآن الكريم وبين طبيعة جهاد ما بعد النبوة وغاياته، بهذا المعنى الذي استمعناه من الفاتحين، فالتخيير بين الإسلام والجزية والسيف لون من الإكراه، وقد نص فقهاء كثير على أن الجزية لا تقبل من نصارى العرب ويخيرون بين الإسلام والسيف، وقد جرى الشافعية على هذا حيث أوجبوا الدخول في الإسلام على كل أهل الأديان غير أهل الكتاب ولا يقبل من أتباع الأديان إلا الإسلام أو السيف [61] ولا يمكن القول إن الذين اختاروا الإسلام هرباً من السيف أو الجزية هم مؤمنون صادقون، ولا يمكن القول إنهم يتمتعون بالحرية الدينية التي نادى بها القرآن الكريم في آيات كثيرة: لا إكراه في الدين، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟

لقد كانت هذه الأسئلة بكل تأكيد سؤالاً يطرح في كل يوم، ولكنه لم يكن يملك أن يوقف عجلة الانتصارات المتتالية في تحويل المشهد الدولي الذي تقوم به سيوف الفاتحين، ولم يكن في ستة الرسول الكريم ما يكفي لحسم هذا الجدل، وعلى الرغم من أن الروح الغالبة في رسالته كانت إطفاء الحروب وحفر الخنادق وعقد المصالحات وتألف القلوب، وأنه أكد مراراً أنه ما حمل السيف إلا للدفاع، وأنه ليس سعيداً بخوض الحروب لإخضاع الآخرين

ولكن الاندفاع الثوري كان في غايته، وكان في السيرة النبوية ما يكفي من الملاحم ليكون ملهماً للمحاربين في اندفاعهم إلى ريح الجنة وعبيرها عبر الجهاد والملاحم، واعتبار الحرب ضد كل آخر جهاداً في سبيل الله حتى يكون الدين كله لله، وحتى يدخل الناس في الدين الحق.

---

[61] الام للشافعي ج4 ص 254 وانظر أيضا المجموع للنووي ج 19 ث 290

جهود الخلفاء الراشدين في تطوير فقه الجهاد:

يبدو الفارق واضحاً بين جهاد النبي الكريم وجهاد الخلفاء من بعده، فقد كانت حروبه دفاعية بشكل تام، ولم تتعد دائرة الحجاز، أما سراياه التي أرسلها إلى اليمن وعمان والبحرين ونجد فقد كانت سرايا دعوة وليس جيوش فتح، وبالنسبة لجهاد النبي الكريم فقد اكتملت رسالته يوم فتح مكة، وأمضى سنواته الأخيرة في تأمين حدود الدولة الناشئة.

ولكن التطورات تسارعت بشكل كبير بعد وفاة الرسول الكريم، وخاض الصحابة حرباً داخلية مريرة ضد المرتدين، ثم خاضوا بوقت متزامن حرباً طاحنة ضد الروم والفرس أدت إلى طردهم من أرض العرب وانهيار الامبراطورية الفارسية كلياً فيما انحسر الروم إلى أنطاكية وبيزنطة.

وفي غمار هذه الانتصارات العسكرية تجاوز الصحابة الأهداف الأولى للجهاد الذي تركز حول دور الجيش الوطني وحماية الدولة إلى حروب الفتوح، وبالتالي أصبحت هذه الحروب بحاجة إلى تحديد واضح للمقاصد والعقائد والهدف القتالي.

ولا بأس أن نتابع معاً بعض الجهود التي بذلها الخلفاء السابقون لترشيد الجهاد وتأسيسه على مبدأ الدفاع الوطني عن الأمة، وتأكيد القيم التي سبقوا بها في حقل التعاون الدولي وبناء قيم احترام الإنسان.

ويسجل للخليفة الراشد عمر بن الخطاب سلسلة إصلاحات في قوانين الجهاد، ويمكن في هذه الدراسة رصد خمسة إصلاحات كبيرة:

الأول: رفضه لإعلان الحرب قبل استنفاذ شروط السلم

فقد اعترض أشد الاعتراض على الاندفاع في الحرب قبل استنفاذ الحلول السلمية، واشتهر موقفه في رفض الحرب على المرتدين، ومع أنه لم يشأ أن يفارق أبا بكر بعد أن اختار قتال المرتدين، ولكنه ظل يراقب هذه الحروب ويعمل على لجم جماح المندفعين فيها، واشتهر موقفه من شدة خالد بن الوليد وبشكل خاص قتله لمالك بن نويرة، وقال لأبي بكر إن في سيف خالد لرهقاً، ومع أن خالد سيف سله رسول الله على المشركين كما قال أبو بكر، ولكن عمر عزله من أول يوم تولى الخلافة فيه، وأحاله إلى محكمة مشهورة رغم الانتصارات الكبيرة التي اقترنت باسمه، وكان في ذلك يعزز مبدأ سمو الأخلاق على السياسة، وللقصة تفاصيل كثيرة معروفة يمكن متابعتها في سائر كتب السير والتاريخ.

الثاني: موقفه الواضح من الأقليات

وبشكل خاص من الوجود المسيحي في جزيرة العرب، حيث سافر بنفسه إلى الشام للقاء أبي عبيدة وجيشه في الجابية ومنها توجه معهم إلى القدس، وهناك التقى الأسقف سفرنيوس وتسلم مفاتيح المدينة المقدسة منه في أجواء احتفالية لا يبدو فيها أي مظهر من تجبر الغالب وسحق المغلوب، بل قام بكتابة العهدة العمرية التي لا يزال النصارى إلى اليوم يعلقونها في صدر كنائسهم وأسقفياتهم رمزاً للعدالة وحرية الأديان.

ونص العهدة العمرية كما ساقه المؤرخون: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين[62]

ولا يبدو في الجزية المفروضة هنا إلا قدر من الالتزام المالي تجاه الدولة لتأمين الحماية والأمن، وقد كان هذا مقبولاً في تلك المرحلة من التاريخ، ويسجل لعمر بن الخطاب أنه حقق هذه الغاية بمنتهى الرقي والاحترام لخصمه، وتأمين الاستقرار لهذا الجزء من الوطن العربي الذي كان الروم يحتلونه، وليس في موقف عمر شيء مما ورد في كتب الفقه بعد ذلك من وجوب إذلال أهل الذمة وتحقيرهم، عبر أداء الجزية من المغلوب للغالب.[63]

والثالث: موقفه من استمرار الفتوح بعد بلاد العرب

فقد رأى في مضي الفتح خارج بلاد العرب لوناً من الحرب العابثة، لأن الناس لا تدخل في الدين بالإكراه، وحين جاءته أخبار تحرير العراق من الفرس وفرار كسرى إلى فارس، قال عمر بن

---

[62] تاريخ الأمم والملوك للطبري ج2 ث449

[63] في هذا السياق نسير مثلاً إلى نص ابن عابدين في رد المحتار ج 16 ص81 في تفسير الآية: حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وَتَكُونُ يَدُ الْمُؤَدِّي أَسْفَلَ وَيَدُ الْقَابِضِ أَعْلَى قَالَ وَفِي رِوَايَةٍ يَأْخُذُ بِتَلْبِيبِهِ وَيَهُزُّهُ هَزًّا وَيَقُولُ أَعْطِ الْجِزْيَةَ يَا ذِمِّيُّ ... وفي رواية أعط الجزية يا عدو الله !!..... وَيَصْفَعُهُ فِي عُنُقِهِ، الصَّفْعُ أَنْ يَبْسُطَ الرَّجُلُ كَفَّهُ فَيَضْرِبَ بِهَا قَفَا الْإِنْسَانِ أَوْ بَدَنَهُ.

الخطاب كلمته الحكيمة المشهورة: وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم[64]،

وربما كان في السياق نفسه ما روي عن النبي الكريم قوله: اتركوا الترك ما تركوكم فإنه لا يسلب أمتي ملكها وما خولها الله إلا بنو قنطوراء.[65]

وبالمعنى إياه الرواية التالية: اتركوا الترك ما تركوكم وذروا الحبشة ما وذروكم،[66] ومع قناعتي بضعف الإسناد في هاتين الروايتين ولكن المعنى الذي اراده ناقلوها من المحدثين الكبار كالطبراني والهيتمي والسيوطي هو التأكيد على أن موجبات القتال للتحرير في الشام والعراق لا وجود لها في الحبشة والترك وفارس، وأن المطلوب في العلاقات الدولية هو العدالة وحسن الجوار وليس الحروب الدينية التي لا تأتي أبداً بالإيمان.

وهكذا فإن الكفاح ضد الاحتلال الرومي والفارسي كان يبرر إعلان القتال ابتداء، ووجوب رحيل المحتل، وربما كان وارداً من قبل في إطار توحيد الجزيرة العربية وبسط سلطان الدولة الناشئة على كامل تراب الجزيرة ولكنه لا يبرر بحال من الأحوال التوجه إلى الأمم الأخرى بالخطاب نفسه، واعتبارها محلاً للجهاد لمجرد أنها لا تؤمن بالعقيدة التي آمن بها المسلمون.

وقناعتي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يؤصل لارتباط الجهاد بغاياته المشروعة، في التحرر والعدالة، وحماية الثغور والأوطان، وتحرير بلاد العرب التي كانت تعاني استعمار الفرس في العراق والروم في الشام والرومان في مصر، ولم يكن يرى في الجهاد ذلك الوجه الذي تمارسه اليوم الحركات الراديكالية في اعتبار الجهاد آلة لنشر الإسلام في العالم، وأن محمداً بعث بالمصحف والسيف.

والرابع: موقفه من منطق الحرب للغنائم:

فقد كانت الغنيمة عاملاً حقيقياً في اندفاع الناس للفتوح، وهذه حقيقة لم تكن لتخفى على دارس فقد أشار إليها القرآن الكريم مراراً، سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا[67]

وبعد أن تحققت فتوح العراق جاءه الفاتحون يطالبون بنصيبهم من الغنائم، وقد كانوا يستحقون وفق النص أربعة أخماس الغنائم، ولكن عمر بن الخطاب أبى أن يدفع إليهم هذا، وحين جادله صحابة كثير بأنه يخالف أحكام الجهاد التي بينها الله في كتابه، تمسك عمر برأيه، ورفض أن يقبل

---

[64] الاكتفاء في المغازي ج4 ص 286 وانظر الكامل في التاريخ ج11 ص 123

[65] الخصائص الكبرى للسيوطي ، نقله عن الطبراني وأبي نعيم انظر الخصائص ج 2 ص 184

[66] الآحاد والمثاني للسيباني ج5 ص 225

[67] سورة الفتح 15

مبدأ الغنائم في الحروب، وتوجه لجعل المقاتل موظفاً رسمياً في الدولة يتقاضى راتباً وتعويضاً يكفيه ويجزيه، ولكن ليس من حقه أن ينازع في نصيب من الغنائم التي يفترض أنها حق للدولة.

فانتشر خبر ذلك بين الناس ووقع خلاف بينه وبين بعض الصحابة ، فكان عمر ومؤيدوه لا يرون تقسيم الأراضي التي فتحت، وكان بعض الصحابة ومنهم بلال بن رباح، والزبير بن العوام يرون تقسيمها، كما تقسم غنيمة العسكر، كما قسم النبي خيبر، فأبى عمر رضي الله عنه التقسيم وتلا عليهم الآيات الخمس من سورة الحشر وفيها: مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغْنِيَاءِ مِنْكُمْ

فما من أحد من المسلمين إلا له في هذا الفيء حق، قال عمر: فلئن بقيت ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه[68]**،**

وفي رواية أخرى جاء فيها. قال عمر: فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت، ما هذا برأي، فقال له: عبد الرحمن ابن عوف فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم، فقال عمر ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك، والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها، فما يسد به الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل لهذا البلد وبغيره من أراضي الشام والعراق؟

وعاد الزبير وبلال وسلمان ينازعونه في ذلك وقالوا: تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا، ولأبناء القوم وأبناء أبنائهم لم يحضروا، فكان عمر يقول: لو قسمتها بينهم لصارت دولة بين الأغنياء منكم، ولم يكن لمن جاء بعدهم من المسلمين شيء، وقد جعل الله لهم فيها الحق بقوله تعالى: { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ } ثم قال: فاستوعبت الآية الناس إلى يوم القيامة، وبعد ذلك استقر رأي عمر وكبار الصحابة رضي الله عنهم على عدم قسمة الأرض.

وهكذا فقد رفض عمر بن الخطاب مبدأ: جاهدوا تغنموا[69]**، ومبدأ إنما جعل رزقي تحت ظل رمحي**[70]**، واختار تأويلاً للنص يختلف أشد الاختلاف عن التأويل القريب، وكان من وجهة نظري أول استحسان طبقه الفقه الإسلامي، حيث تم العدول عن القياس الجلي إلى القياس الخفي لحكمة اقتضت ذلك العدول.**

ومع إصلاحات عمر بن الخطاب الجوهرية في أمر الجهاد، وحذف جمع الغنائم من حسابات المجاهدين، فقد أصبح الجهاد أكثر رشداً، وتوجهت جهود المسلمين لبناء البلاد المفتوحة وليس

---

[68] الخراج لأبي يوسف ص 67

[69]

[70]

لإنشاء فتوح جديدة، وبالفعل فقد نصب في حياة عمر اثنا عشر ألف منبر للإسلام، ونظمت الدواوين وجندت الجند وأحدثت السجون ونظم القضاء.

وفي مرحلة تالية من إصلاح الجهاد تجب الإشارة إلى دور الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز في إصلاح مفهوم الجهاد ورسالته،ويمكن فهم اجتهادات عمر بن عبد العزيز في أمر الجهاد من خلال عدد من المواقف الجليلة نعد منها:

الأول: اعتراضه الشديد على سلوكيات الحجاج الذي اشتهر عنه الولوغ في الدماء حماية للأمة، وإراقة دم المخالفين لحفظ الأمن في الأمة، ومن المؤسف أن الحجاج يجد اليوم من يبرر له ظلمه وقسوته بدعوى أنه ضرورة لحفظ الأمن والاستقرار، ومن المؤسف ان الذين يدافعون عنه بشيرون عادة إلى دوره في الجهاد والغزو، وأن كثيراً من الفتوح في الشرق قد تحققت على يد رجاله، وهم بذلك يبررون عنفه وقسوته على الداخل بعنفه وقسوته في الغزو، ولقد كان عمر بن عبد العزيز أبصر الناس بسلوك الحجاج وكان يعلم تماماً كل فظائعه، ولذلك قال: يا بني أمية والله لو جاءت كل أمة بذنوبها وجئتم بالحجاج لغلبتم سائر الأمم..... وفي نص آخر: لو جاءت كل أمة بفرعونها وجئناهم بالحجاج لغلبناهم[71] وقال الذهبي فيه : ما كان يصلح لدنيا ولا لآخرة [72]

الثاني: قيامه بإصلاحات مباشرة في إطار حقوق الإنسان ورعاية السجناء،

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد: وأنظروا من في السجون ممن قام عليه الحق فلا تحبسه حتى تقيم عليه، ومن أشكل أمره إلي فيه، واستوثق من أهل الزعارات فإن الحبس لهم نكال، ولا تعد في العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال، وإذا حبست قوماً في دين فلا تجمع بينهم وبين أهل الزعارات في بيت واحد ولا حبس واحد، وأجعل للنساء حبساً على حدة، وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي فإن من إرتشى صنع ما أمر به

الثالث: رفضه المطلق للنصر بدون قيم الجهاد:

فقد بدأ ولايته بوقف كثير من كتائب الفتوح، ومراجعة دوافع الحرب، ومن أشهر المواقف التي أنجزها عمر بن عبد العزيز إلغاء فتح سمرقند، وأمر الجيش الإسلامي بالانسحاب وذلك بعد أن كلف لجنة قضائية بدراسة شكوى أهل سمرقند الذين احتجوا على فتح قتيبة بن مسلم لبلدهم، حيث أمر القاضي جميع بن حاضر بوجوب خروج الجيش الفاتح من المدينة وتسليمها لأهلها.

---

[71] السيرة الجلبية ج1 ص394

[72] السيرة النبوية للذهبي ج 5 ص450

وجميع بن حاضر قاض شهير كلفه عمر بن عبد العزيز بقضية دقيقة وحساسة وهي مناقشة الفتح الإسلامي لمدينة سمرقند دستورياً، حيث شكى أهل سمرقند لعمر بن عبد العزيز أن قتيبة بن مسلم غزا بلدهم وفرض عليهم السيف وأسقط نظامهم وأقام حكماً إسلامياً في سمرقند! كان ما جرى أمراً طبيعياً في سياق الحرب آنذاك، وقد نال عليه قتيبة ثناء كبيراً من علماء الشريعة آنذاك.
ولكن عمر بن عبد العزيز لم يشأ أن يضحي بالأخلاق في محراب السياسة، وشكل هيئة قضائية خاصة برئاسة جميع بن حاضر لمحاكمة تصرف أشهر بطل من أبطال الفتوح الإسلامية في تاريخ الشرق قتيبة بن مسلم الباهلي الذي كان قد توفي قبل ثلاثة أعوام! وحين قامت اللجنة بدراسة الواقعة انتهت إلى أن فتح سمرقند لم يكن ملتزماً للقيم الإسلامية في الفتوح!! وأنه لم يحقق مصالح الناس الحقيقية في الاختيار والحرية!! وحين صدر الحكم القضائي بعد ست سنوات من فتح سمرقند وجه عمر بن عبد العزيز من فوره لحاكم سمرقند سليمان بن أبي السرى: اسحب جنودك، اخرجوا من سمرقند!! ولم يكن أمر الانسحاب مسألة سهلة أو بسيطة، وانسحب الجيش الإسلامي من سمرقند بعد أن تم الفتح، وربما لا يعرف في تاريخ الحروب أن جيشاً فاتحاً منتصراً انسحب من أرض مفتوحة لمجرد سبب أخلاقي!![73]
والقصة كما رواها البلاذري في الفتوح: أن أهل سمرقند لما ولي عمر بن عبد العزيز ، قالوا لعاملهم " سليمان بن أبي السرى " إن قتيبة بن مسلم الباهلي غدر بنا وظلمنا ، وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والانصاف ، فأذن لنا ، فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكو ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أعطيناه ، فإن بنا إلى ذلك حاجة ، فأذن لهم ، فوجهوا منهم قوما إلى " عمر بن عبد العزيز " رضي الله عنه ، فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له: إن أهل سمرقند قد شكوا إلى ظلما أصابهم ، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي ، فلينظر في أمرهم ، فإن فأجلس لهم سليمان " جميع بن حاضر " القاضي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدا أو ظفرا عنوة . فقال أهل السند ، بل نرضى بما كان ، ولا نجدد حربا.

ومن وجهة نظري فإن العمرين: عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز كانا أول من أدرك وجوب مراجعة أحكام الجهاد، وأن الأمر جد مختلف بين القتال في إطار توحيد الجزيرة العربية أو حتى تحرير الشام والعراق وهي أراض عربية كانت تعاني من احتلال أجنبي فارسي في العراق ورومي في الشام، وقد كان ذلك مفهوما ومبرراً، أما القتال فيما وراء ذلك وبنفس الشروط القديمة فهو في الواقع إسراف في الفهم الظاهري ولن يحقق أهداف الإسلام في الإخاء الإنساني والسلام.

وهكذا فقد كان الجهاد في العصر الراشدي مرتبطاً في الغالب بمبدأ الدفاع عن الثغور وحماية بيضة الأمة، ولم يكن أبداً في وارد إدخال الشعوب في الإسلام.

---

[73] المعجم الكبير للطبراني ج 10 ص 51

وفي القرنين السادس والسابع شهدت الدولة الإسلامية غزوات عنيفة من الشرق المغولي ومن الغرب الصليبي، وكانت ثقافة الجهاد هنا في السياق ذاته، وهو الدفاع عن الأمة، وطرد الغزاة، وليس تخييرهم بين الإسلام أو الجزية أو السيف.

وهكذا فإن الفتوح الإسلامية في الشرق الأوسط كانت في البلدان العربية تحديداً حركات تحرر، حيث وجد العرب إخواناً لهم يخلصونهم من الروم في الشام والفرس في العراق والرومان في شمال إفريقيا، وينشؤون لهم بعد ذلك المراكز الحضارية، وقامت المدن الجديدة برسالتها في العطاء في القيروان وبغداد والقاهرة، حيث انطبعت معالم البلاد العربية بالمنجز الإسلامي، وأصبحت الفتوح الإسلامية هي المنطلق الصحيح لقراءة التاريخ في منطقة الشرق الأوسط.

لا أزعم أن هذه الحروب كانت عادلة أو مثالية، ولكن ما أريد أن أوضحه هنا هو كيف نظرت تلك الشعوب إلى الفتح الإسلامي، من الممكن أن يدون المستبد في التاريخ ما شاء من أحكام، ولكن المعيار الذي لا يمكن اتهامه هو الشعوب نفسها، كيف نظرت تلك الشعوب إلى الفتح الإسلامي، وكيف تعاملت معه؟ الشعوب العربية ترى في الفتح الإسلامي أهم موعد تحرر نالته تلك الشعوب، واليوم فإن أسماء الفاتحين من جيش الصحابة هي أكثر الأسماء حباً وقرباً إلى نفوس الناس، ومن الممكن أن يجامل الناس في كل شيء إلا في اختيار أسماء أبنائهم، والآن فإن اسم محمد وخالد وسعد وعبيدة هي أكثر الأسماء التي يتسمى بها الناس هنا، لم يحصل أن أحداً سمى ابنه غورو أو اللنبي أو نابليون، مع أنها أسماء عالمية كبيرة ولكن الشعوب لا يمكن خداعها للأبد وهي تعرف الفرق جيداً بين الفتح الإنقاذي وبين الغزو الاستعماري الابتزازي على الرغم من الحملات الإعلامية الجبارة التي تزين صنائع الغزاة وتجمل وجوههم القبيحة!

إن الجانب الأكبر من المسلمين في الأرض خارج البلاد العربية قد دخل عن طريق الدعوة والحكمة والنصيحة، كما هو الحال مع ثلاثمائة مليون مسلم في الملايو واكثر من ذلك في البنغال والهند والصين، وقد كانت التحولات إلى الإسلام تأتي في سياق قيام دول في المنطقة تدين بالإسلام كالمغولية القبجاقية والمغولية السبكتكينية، أو عبر التجار الذين انطلقوا من سواحل عمان وحضرموت إلى أرخبيل الملايو.

ولا ننكر أثر الحروب الغورية والغزنوية في الهند، ولكنها لم تكن كافية لهذه التحولات الكبرى لولا جهود الدهوة السلمية في هذه التجولات الاجتماعية الكبرى.

وفي العصر العثماني فقد وقعت الحروب المتبادلة بين العثمانيين والدول الأوربية وبشكل خاص تلك التي شاركت في الحروب الصليبية ضد الشرق الإسلامي، واشتهر السلاطين العثمانيون بلقب غازي وهو أكثر الألقاب مجداً للعثمانيين، ولكن هذا اللون من الجهاد اختص في أوربا كردة فعل على الحروب الصليبية المريرة التي عانتها البلدان الإسلامية من قبل.

كما قامت حروب داخلية صفوية عثمانية، وحروب لإخضاع الولايات المسلمة في الشام ومصر والعراق واليمن والمغرب، ولكن لم يكن في وعي المتحاربين هنا أو هناك أنهم يحاربون من أجل إدخال الناس في الإسلام.

ولا نستطيع بالطبع تبرير تاريخ الحرب في الإسلام، وتبرير سلوكيات المحاربين عبر التاريخ وأهدافهم، والحرب هي الحرب، ولا يسعني تبريرها بحال، وغاية ما أقوله إنها حرب من الحرب، فيها ما كان دفاعاً عن العدالة والمشتضعفين، وفيها ما كان في سياق تنافس سياسي وتطاحن إقليمي، ولا يجوز أن نتصور ان المسلمين كانوا هم الجانب المصيب في كل هذه الاشتباكات، كما لا يصح القول إنهم كانوا في الجانب الخطأ من التاريخ وأن أعداءهم كانوا على صواب، بل من حق المؤرخ أن يدرس كل حرب قامت في التاريخ، وأن يحكم عليها بما عادت به على الناس من خير وشر، وعلى سبيل المثال فقد كانت تركيا الخلافة جزءاً من المحور الألماني في الحرب العالمية الأولى، ولا يوجد اي سبب لاعتبار هذا الموقف هو الصحيح أخلاقياً أو دينياً، إنها حروب سياسة وحسب، والأمر نفسه في الحروب التي وقعت خلال التاريخ بين المسلمين وخصومهم في غير سياق الدفاع عن الأمة، وحماية الثغور.

ولكن ما أود أن أشير إليه هو أن الجهاد الذي تتم ممارسته اليوم في إطار رايات عمية لا يشبه في شيء جهاد النبي الكريم الذي جاء في إطار دفاعي واضح، وأن الجهاد لغايات نشر الدين وقتال غير المسلمين لم يكن في هدف الخلافة الراشدة، خاصة بعد إصلاحات عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، وإنما كان الجهاد يرتبط بالدفاع عن الثغور وحماية الأوطان.

وظل الغزو الحربي ضد الكفار لإدخالهم في الدين الحق شأن الحركات الانفعالية الثورية في التاريخ الإسلامي كالخوارج والكيسانية والمختارية والوهابية الأولى، أما الدول الإسلامية التي قامت في الجغرافيا، واتخذت طابع الدولة المستقرة فقد كانت تطبق سياسات معقولة مع جيرانها من الأمم، ولم يكن في الحروب التي خاضتها هدف إكراه الناس على الإيمان.

السلفية الجهادية مصدر التشدد في تفسير الجهاد:

ولكن إعادة إحياء ذلك اللون البيوريتاني للجهاد الذي نراه اليوم إنما ظهر على يد الحركة الوهابية الأولى في نجد التي حملت فكرة رئيسية وهي أن الأمة قد قعدت عن الجهاد، وفرطت في أمر الله للمسلمين بالنفير خفافاً وثقالاً، وأنه يتعبن على المسلمين اليوم استئناف القتال ضد عدوهم حتى يبسط سلطان الإسلام في العالم كله، وهذه الفكرة لا زالت تداعب أفكار كثير من شبابنا، ويعتبرون ذلك استئنافاً حقيقياً للرسالة الجهاد، وأن كل الموادعات والمصالحات والعلاقات الدبلوماسية مع شعوب الأرض هي سلوك باطل محاد للجهاد، وإن الأمة الإسلامية مأمورة بالاستعداد للقتال في كل وجه حتى إخضاع الناس للدين الحق.

ومن العجيب أن الدولة السعودية الأولى التي تحالفت مع الحركة الوهابية لم تبذل أي جهد وطني لقتال الفرنج والانكليز والبرتغال الذين كانوا يطوقون سواحل العرب من كل وجه، ورأى مشايخ الجماعة أن الجهاد مشروع لقتال المرتدين أكثر مما هو مشروع لقتال الكفار، وأن العالم الإسلامي قد دخل في واقع ردة تشبه الجاهلية الأولى، وأن الزمان قد استدار الى هيئته الأولى، وإن الواجب يقتضي الجهاد لإخراج الناس من الجاهلية، بل إن قتال المرتدين أولى من قتال الكافرين الأصليين، والمرتدون هنا هم عامة المسلمين الذين يعظمون القبور ويتخدون عليها الأضرحة والقباب، ويحتكمون إلى شرع غير شرع الله، ووفق العناوين العريضة التي حددها محمد بن عبد الوهاب في نواقض الإسلام العشرة فإنه قد بدا واضحاً أن العالم الإسلامي برمته يعيش في حالة ردة، والمطلوب من المتقين هو اتباع سيرة أبي بكر في قتال المرتدين عن قوس واحدة.

وتبنى محمد عبد الوهاب فكر ابن تيمية، الذي اشتهر بلقب شيخ الإسلام، وأنزلته الحركة الوهابية منزلاً يتجاوز مكانة الأئمة الأربعة، في الاحتجاج والفتيا، وتم رفض منهج الأئمة الأربعة في الاستدلال بمصادر الشريعة العقلانية كالاستحسان والاستصلاح والعرف، واعتبر ذلك كله تعدياً على الكتاب والسنة، واحتكاماً إلى غير شرع الله.

ولم يخل الأمر من غمز ولمز بالامام أبي حنيفة والامام مالك ومذهبيهما الأصلاحيين، حيث أتاح فقه الحنفية التشريع بالاستحسان وأتاح مذهب المالكية التشريع بالمصلحة، وكلاهما عند غلاة الوهابية مضادة لله ولكتابه، واحتكام للهوى في مواجهة الوحي المعصوم.

وهكذا فقد أنشأت الحركة الوهابية الجهاد من جديد على منهج السلف ولكنه هذه المرة لم يكن ضد كفار قريش بل كان ضد المسلمين في الجزيرة العربية والشام والعراق الذين نعتوا بالمشركين بسبب قعودهم عن الجهاد، وبسبب بعض عاداتهم الشركية وأهمها احترام القبور والأولياء وإضافة مصادر عقلانية للشريعة زيادة على الكتاب والسنة.

وهكذا فإن السلفية الجهادية التي اشتد عودها في السنوات الأخيرة هي المصدر الفقهي للحركات المتشددة، وقد تم ذلك تحديداً عبر الحركة الوهابية 1780 م حيث تبنى الوهابيون الأوائل مبدأ الخضوع لحاكمية الله والكفر بكل القوانين الوضعية، والقتال لإعادة الناس إلى الإسلام وإقامة حدود الله، وفي هذا السياق تم اعتبار الدول الإسلامية التي كانت قائمة دولاً مرتدة لأنها قعدت عن الجهاد وتوقفت عن تنفيذ الحدود.

ولم يكن القوم يكتمون أمر جهادهم، وأنه يحل لهم مال عدوهم وأرضه وعرضه، وفي ذلك يقول في الدرر السنية:

قال سعود بن عبد العزيز في الدرر السنية (280/9) :

(وأما ما ذكرت: إنا نقتل الكفار، فهذا أمر لا نتعذر عنه، ولم نستخف فيه، ونزيد في ذلك إن شاء الله، ونوصي به أبناءنا من بعدنا، وأبناؤنا يوصون به أبناءهم من بعدهم، كما قال الصحابي: على الجهاد ما بقينا أبدا.

ونرغم أنوف الكفار، ونسفك دماءهم، ونغنم أموالهم بحول الله وقوته....

ولا لنا دأب إلا الجهاد، ولا لنا مأكل إلا من أموال الكفار ...)[74] .

ولكن الكفار هنا ليس اسماً للمستعمر البريطاني والفرنسي الذي كان يحتل بلاد المسلمين بل كانوا يقصدون في الواقع مخالفيهم في العقيدة من المسلمين، وبشكل خاص الممتنعين من البيعة، ونصهم في ذلك:[75]

وأما من بلغته دعوتنا إلى توحيد الله، والعمل بفرائض الله، وأبى أن يدخل في ذلك، وأقام على الشرك بالله، وترك فرائض الإسلام، فهذا نكفره ونقاتله، ونشن عليه الغارة، بل بداره؛ وكل من قاتلناه فقد بلغته دعوتنا.

بل الذي نتحقق ونعتقده: أن أهل اليمن وتهامة، والحرمين والشام والعراق، قد بلغتهم دعوتنا، وتحققوا أنا نأمر بإخلاص العبادة لله، وننكر ما عليه أكثر الناس، من الإشراك بالله من دعاء غير الله، والاستغاثة بهم عند الشدائد، وسؤالهم قضاء الحاجات، وإغاثة اللهفات؛ وأنا نأمر بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وسائر أمور الإسلام؛ وننهى عن الفحشاء والمنكرات، وسائر الأمور

---

[74] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج12 ص 257

[75] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ج 12 ص 258

المبتدعات؛ ومثل هؤلاء لا تجب دعوتهم قبل القتال، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المصطلق وهم غارون، وغزا أهل مكة بلا إنذار ولا دعوة.

وقد استمر القتال بلا هوادة لإدخال الناس في الدين الحق ومحاربة الردة، وخاض الوهابيون سلسلة غزوات يشرحونها في كتبهم باسم غزوة الحجاز وغزوة الشام وغزوة النجف وغزوة البصرة وغزوة الشرارات وغزوة الرملات، ومن الممكن التوسع في تفاصيل هذه الغزوات عبر كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر النجدي الحنبلي أو كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

وأدى ذلك إلى مواجهات مباشرة مع الدول الاسلامية في مصر والشام والعراق، وقد اثارت هذه الممارسات حكومة مصر والشام بشكل خاص التي كانت تحت حكم محمد علي باشا فأطلق ابنه ابراهيم باشا في سلسلة حملات شهيرة انتهت باخضاع الدولة السعودية الأولى ونزع سلطانها عن مكة والمدينة وطريق الحج، ثم احتلال الدرعية وهدمها 1818 وإنهاء الدولة السعودية الأولى.

ومع ان الوهابية عاودت الظهور في الدولة السعودية الثانية، ولكنها اعتبرت من قبل الفقهاء المتبوعين آنذاك حركة خوارجية، وعادت المرجعية الفقهية والعلمية الى المراكز التقليدية في مصر والعراق والشام.

ولكن التحول نحو الواقعية السياسية تم في الدولة السعودية الثالثة التي أسسها الملك عبد العزيز وبه تحولت السعودية من شبه دولة إلى دولة، وتوقفت عن تطبيق الجهاد بالمعنى الأصولي كحرب دينية تهدف لنشر الإسلام، ولم يقم السعوديون بأي عمل عسكري خارج بلادهم منذ انتصار عبد العزيز قبل نحو مائة عام، وتحول الجهاد إلى نظام الدفاع الحديث عبر الجيش الوطني السعودي.

ولكن النظام السياسي وقد فرض هذا التطوير في الجهاد لم يشأ أن يفرض الشيء نفسه في الحدود، واستمر القضاة يقضون باطراد بالحدود الجسدية وخاصة في الجلد، وبنسبة أقل في القطع والرجم والصلب، وبذلك فإنه تكرر الشيء إياه وهو أن الحدود الجسدية طبقت في أشباه الدولة، حتى إذا استقرت الدولة وجدت السبيل إلى استبدال هذه العقوبات بعقوبات إصلاحية إلى حد بعيد.

الحركات الجهادية في القرن العشرين

وفي القرن العشرين عادت الدعوة الى الجهاد الديني واقامة الحدود عبر عدد من الحركات أهمها الجماعة الاسلامية في باكستان وحركة الاخوان في مصر وفق رؤية تيار سيد قطب والكتاب الذين

نسجوا على منهجه، ورفعت شعر المصحف والسيف، ودعت هذه الحركات صراحة إلى وجوب الجهاد لإعادة المسلمين إلى الإسلام وإقامة حدود الله فيهم.

وشهدت الحركة الهندية منعطفا هاماً بقيام دولة باكستان واعتبر ذلك نجاحاً لمشروع السلفية الجهادية وتحولت المطالبة بالحاكمية الى النضال السياسي.

أما مصر فقد تمت مواجهة السلفية الجهادية بحزم شديد، وانحسر حضورها من الحياة العامة ولكنها ظهرت فيما بعد على هيئة تنظيمات سرية عنيفة في مصر وفي الجزائر وليبيبيا والسودان، قامت بالدعوة إلى مبدا الحاكمية ولكنها لم تنجح في بسط سلطان حقيقي على الأرض.

وفي نهاية السبعينات تعاظم الدور السوفياتي في أفغانستان ويعتبر قرار بريجينيف في اجتياح أفغانستان أسوا قرار يتخذه مستبد بعد هتلر، وقد أدى هذا القرار الطائش إلى إشعال العالم كله بلوثة الحرب الدينية التي اشتعلت وما زالت جذعة تجد وقودها ونارها كل يوم من أحداث السياسة العالمية.

فقد أعادت هذه الحرب إحياء ثقافة الجهاد الأولى، عبر مجموعة عبد الله عزام، التي سرعان ما اجتذبت ألوف الغاضبين من الشباب، وتوجت بإعلان قيام القاعدة للجهاد الإسلامي، وبدأت القاعدة نشاطها في مواجهة الاحتلال السوفياتي لأفغانستان، وتمكنت بالفعل من تحقيق انتصارات هامة، أجبرت الروس على الرحيل عن أفغانستان.

ولكن ذلك الرحيل المهين لم يكن نهاية المأساة بل كان في الواقع بدايتها، وتحول المجاهدون في أفغانستان إلى ألوية متحاربة، يقاتل بعضها بعضاً للأسباب الإيديولوجية إياها، أو بالذراع نفسها، وسرعان ما انتقل الجهاد بمفهومه هذا إلى الجزائر وافغانستان والصومال، وانفجرت بعد ذلك بالحرب الأمريكية ضد العراق وأفغانستان.

وفي السنوات الأخيرة ظهرت السلفية الجهادية بشكل أكثر وضوحاً بعد نجاحها في السيطرة على أفغانستان (حركة طالبان) ثم المحاكم الإسلامية في الصومال وبوكوحرام في نيجيريا وابو سياف في اندنوسيا، ولكن المشهد الأكثر تحدياً ظهر أخيراً عبر دولة الشام والعراق الاسلامية داعش، وإعلان الخلافة الإسلامية في الموصل، والبدء الفوري بتطبيق الحدود والجهاد ضمن إطار مشروع جهادي قائم على مبدأ: باقية وتتمدد، وهو مشروع يتيح للجهاديين في داعش اقامة هذه الاحكام في كل مكان يبسطون عليه سلطانهم، وهو الآن يتمدد في أرض واسعة تمتد من ريف حلب إلى قضاء بيجي في العراق.

وقد قامت السلفية الجهادية على مبدأ الحاكمية، وجعلت محور رسالتها الآية الكريمة: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، وقد تكررت الآية نفسها ثلاث مرات، حيث تكررت بصيغ

أخرى هي: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون، ثم قوله تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون.

وهكذا فقد قامت السلفية الجهادية بإعلان الحاكمية لله وبدات على الفور بتطبيق مبادئها من خلال أمرين اثنين:

- **الأولى: الجهـــــاد الديني**
- **الثانية: العقوبات الجسدية**

وقد أثارت هذه التطبيقات موجة هائلة من الاحتجاج والغضب العالمي، بما في ذلك العالم الإسلامي بجامعاته ومفكريه ورجال السياسة والدين فيه، وارتفعت المطالبات بوجوب وقف هذا اللون من الاستهتار بحياة الناس وإراقة دمائهم بكل الوسائل الممكنة، بما في ذلك دعم التحالف الدولي الذي يحارب هذه التنظيمات تحت راية المجتمع الدولي.

وتبدو هذه الدراسة قلقة لجهة اتصالها بقضيتين مختلفتين، الجهاد والحدود، فالأولى شأن السياسة والثانية شأن القضاء، والأولى مسألة عسكرية بحتة والثانية مسألة حقوقية وقضائية، ولكن ما يبرر اتحاد الموضوع هو أن كلاً منهما يمس الحياة الإنسانية، وحق الإنسان في الحياة، كما أنهما اشتركا معاً في الظهور والضمور، في مراحل محددة من التاريخ الإسلامي، وبتعبير أكثر وضوحاً، فقد ظهر الجهاد الديني والحدود في مرحلة قيام الدولة الإسلامية الأول، ولكن الأمة بعد أقل من قرنين من الزمان توقفت عن اعتمادهما معاً فتوقفت إقامة الحدود الجسدية وخاصة في القطع والرجم والصلب، كما توقفت عن إطلاق موجات الفتوح وتحولت تدريجياً إلى بناء علاقات دبلوماسية صحيحة، فيما تحولت الحرب إلى أهداف سياسية معروفة تقوم للدفاع عن الدولة علاجياً أو وقائياً، أو تقوم بدافع الأطماع الواضحة وتجتاح المعارضين السياسيين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين وهذا هو شكل الحروب التي خاضها المسلمون منذ توقف عصر الفتوح الأول.

كما أن الأمرين (الجهاد والحدود) هما أشد القضايا التي تفرض نفسها في المواجهة بين الشرق والغرب وبين الإسلام والحضارة الحديثة، فبينما ينطلق الجهاديون نحو هدفهم في إقامة دولة الخلافة وقتال الناس حتى يدخلوا في الدين الحق، على مبدأ باقية وتتمدد، والشروع الفوري في تطبيق أحكام الشريعة على النمط التقليدي، على الرغم من الاعتراض المستمر من قبل فقهاء الشريعة في العالم الإسلامي ومؤسسات الشريعة المعتبرة كالأزهر ومؤسسات الفتوى على أساس قيام هذه الممارسات في غياب الشروط الشرعية المعتبرة للجهاد وللحدود

وهكذا فإن العالم الإسلامي الجديد وكذلك العالم المتحضر يرى في فوضى السلاح والقتال هذه تهديداً حقيقياً للسلم العالمي والأمن الإقليمي وتفرض عليه مسؤولياته الاجتماعية والإنسانية والدينية التدخل لوقف هذا المشروع الثائر الذي يرفع راية الجهاد.

الحركات الجهادية في القرن الجديد

كانت أحداث الحادي عشر من أيلول 2001 إيذاناً بدخول العالم إلى واقع جديد، وقد عبر ابن لادن عن ذلك بانقسام العالم إلى فسطاطين، وعودة الجهاد الأول وفق القواعد الظاهرية القديمة التي تحكمه، حيث تقرر كتب الشافعية والحنابلة وجوب مقاتلة المشركين حتى يسلموا أو يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ومع أن المؤسسة الدينية الرسمية في العالم الإسلامي أدانت عن قوس واحدة أحداث الحادي عشر من أيلول وأصدر المفتون ووزراء الشؤون الدينية في سبع وخمسين دولة هي دول العالم الإسلامي فتاوى واضحة في إدانة هذه الهجمات واعتبارها تشويها للجهاد، وقد صدرت فتاوى مماثلة عن الأزهر ورابطة العالم الإسلامي والمجالس والهيئات الإسلامية في أوروبا وأمريكا، ولكن ذلك لم يحل دون وجود تأييد حقيقي لهذه الهجمات في الجماعات المتشددة، والتي وجد كثير منها أن فرصة حقيقية للجهاد الأول تتوفر اليوم، وأن عليهم دعم هذا الجهد الجهادي، وأعان على ذلك بالطبع التعليم التقليدي لثقافة الجهاد التي تقدمها المدارس والمساجد باستمرار دون وعي بتأثير ذلك في تربية الجيل، وميوله المتزايد إلى العنف، وكان لشخصية ابن لادن تأثير طاغ في توسع نفوذ هذه المجموعات وانخراطها في مزيد من الأعمال القتالية، الأمر الذي وضع العالم في مواجهة مباشرة مع حركات الجهاد الإسلامي.

وشهد العقد الأول من القرن الجديد حروباً دامية في العالم الإسلامي في أفغانستان والعراق والصومال، ولكن هذه الحروب لم تسهم أبداً في وقف التصاعد الانفعالي للحركات المتشددة التي وجدت تبريرها المتزايد عبر السياسات المنحازة للغرب في تأييد إسرائيل، وفسر ذلك دوماً بأنه حرب على الإسلام من خلفية صليبية ويهودية وهو الأمر الذي منح التطرف مبررات جديدة لمزيد من ال‘مال القتالية والجهادية.

ولكن الأمر تطور بشكل كبير في العقد الثاني خلال موجات الثورة في بلاد الربيع العربي، وفي غمار الثورة السورية تم اجتياح محافظة الرقة بالكامل مطلع عام 2013 عبر فصائل مقاتلة تنتمي إلى القاعدة، ولكن المحاربين سرعان ما اختلفوا فيما بينهم وتمكن التنظيم المعروف باسم تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، اختصاراً داعش أو isis من طرد الفصائل الأخرى والاستفراد

بحكم الرقة وجزء كبير من الريف الحلبي، وفي منتصف عام 2014 اجتاح التنظيم العراق واحتل محافظات نينوى وصلاح الدين وجانباً من ديالي والأنبار، وأعلن أبو بكر البغدادي تأسيس الخلافة الإسلامية الجديدة في الموصل وهي ثاني أكبر مدن العراق، ودعا إلى البيعة، وبدأ على الفور إعلان الجهاد ضد الممتنعين عن البيعة، وفي غمار سيطرته على الأرض اصطدم بعشيرة الشعيطات التي امتنعت عن البيعة وعلى الفور تم الحكم على كافة أفراد القبيلة بالقتل تحت اسم: فئة ممتنعة ذات شوكة، وتم قتل أكثر من ألف إنسان، فيما يشير عرب الشعيطات أن القتلى تجاوزوا أربعة آلاف شهيد.

كما قام باستهداف جماعة اليزيديين باعتباره مرتدين عن الملة، وارتكب سلسلة فظائع في القتل والسبي والاسترقاق على سمع العالم وبصره، وبالأدلة التقليدية إياها، أنها الغنائم التي أحلها الله للمجاهدين في قتال المشركين، وعلى الرغم من وحشية هذا السلوك وهمجيته فقد اقتصرت إدانة الفقهاء ورفضهم لهذه الجرائم على أنها تصرفات صادرة من غير ذي بيعة صحيحة، وكأنه لو انعقدت بيعة صحيحة فإنه يمكن الموافقة على هكذا جرائم.

كما قام التنظيم بمباشرة سلسلة من عمليات القتل الفظيع وتعمدوا تصويره وبثه، تحت عنوان: نصرت بالرعب، ولم يبال المحاربون بردود الفعل الغاضبة التي ملأت العالم، وبالفعل فقد كان موقفهم هذا عجيباً فقد تسبب في أمواج من الردة عن الإسلام، واشتدت ظاهرة النيل من الرسول والرسالة بعد أن أصبح انتشار الفكرة متاحا لكل أحد على صفحات التواصل الاجتماعي.

واعتمد التنظيم بشكل مباشر على كلمة منسوبة للرسول الكريم، وهي قوله جئتكم بالذبح[76]، وتصدرت هذه العبارة بيانات التنظيم، واعتبرت تبريراً نبوياً لكل ما يقومون به من فظائع.

والحقيقة أن هذه العبارة صدرت من النبي الكريم كما تشير كتب السير خلال محاصرة المشركين له في مكة، ومنعه من أداء شعائره، ويبدو أنها لم تكن أكثر من تهديد لقريش بوجوب إطلاق الحريات الدينية قبل أن ينفجر غضب الناس، ولم يتبع هذا التهديد أي إجراء عملي، وفهمته قريش على أنه لحظة انفعال من حر تريد قريش ان تحاصر رسالته ومشروعه، ومضى الأمر كذلك ولم يقم الرسول بأي عمل عنيف ضد مخالفيه.

ومن المؤلم ان يمضي هؤلاء القساة في ارتكاب الفظائع الرهيبة كل يوم باسم الرسول الكريم، وباسم رسالة الدين ومن المؤلم أنهم يمتلكون رصيداً كبيراً من التبرير عبر الرواية لما يقومون بفعله من فظائع، وما ذلك إلا بسبب تغييب العقل في الرواية والاكتفاء بدراسة رجال الإسناد، ومنع دراسة المتن، وبالتالي عدم الاعتراف بجهود العلماء خلال التاريخ لفهم دلالات الألفاظ، حيث يمضي العلماء إلى وقف العلم بكثير من دلالات النص الظاهرة وفق قواعد التفسير المحترمة، من وجود الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والعام والخاص، والعام الذي أريد به الخصوص والعام المخصوص، وغير ذلك، واعتبار العالم كله متوقف الزمان لا يتعدى صحراء جزيرة العرب

---

[76] مسند الامام أحمد ج2 ص 218

وظروفها في القرن السابع الميلادي على الرغم من طوفان التحولات الذي يرافق كل عصر، وهو بالطبع في عصرنا أكبر ثورة وأكثر تدفقاً.

ولقد كتبت عشرات المقالات في بيان الأساطير المؤسسة للفكر الداعشي، وأشرت بوضوح إلى دور التعليم الشرعي التقليدي في رواج هذا اللون من التفكير، وقلت بوضوح إن داعش هي بنت لأفكارنا وتمنياتنا التي تمنيناها وعلمناها للطلبة، ونتيجة المظالم والقهر فقد قام طلابنا باستدعائها من النص الظاهري وترجمتها على أرض الواقع، وفق ظاهر النصوص التي علمناها وتعلمناها.

الاستبداد... واستدعاء النموذج الجهادي

وفي الواقع فإن قيام هذه التنظيمات الجهادية بالتمرد وبناء دول داخل الدولة وارتكاب الفظائع لم يكن له ان يوجد لولا الاستبداد الذي يعتبر في الحقيقة سواء أراد أو لم يرد هو الحاضنة الطبيعية لنمو هذه الأفكار.

وبمكننا أن نقارب هذه المسألة بشكل خاص في الحالة السورية.

فقد عاشت الطوائف في سوريا تاريخياً حياة كريمة في إطار عيش مشترك، على الرغم من التعبير الأسود في المناهج الشرعية الذي يتحدث عن الآخرالمختلف دينياً بلغة الإقصاء والتخوين، وأحياناً بجعله هدفاً للجهاد المباشر والحرب المفتوحة، ولكن ذلك كله لم يكن كافياً للتأسيس لثقافة إقصائية إلغائية كالتي نراها اليوم من الفصائل ذات التوجه الجهادي التي تأمر بإقصاء المختلف الديني عن الحياة، فالتطرف لا يجد حاضنته في بلاد العدالة والمساواة وإنما يجد فرضته في بلاد المظالم والمآثم.

لقد قلت في حوارات مفتوحة مع النظام، هناك بكل تأكيد آلاف من القادمين من الآفاق البعيدة للقتال في سوريا، يحملون هذه الرؤية الإيديولوجية للصراع، ولكن هل يسعنا أن ننكر أن أكثر من ثمانين بالمائة من المقاتلين في داعش هم سوريون وعراقيون، أما النصرة فهي تتألف من سوريين جهاديين بواقع أكثر من 95 بالمائة...

لقد رأينا وجوههم في الرقة وفي إدلب وفي بصرى واستمعنا حديثهم وخطابهم، إنهم في الغالب أبناء هذا الريف السوري، ومعظمهم درس في مدارس الحكومة السورية وقرأ مناهجها، وكثير منهم كانوا أعضاء في حزب البعث، يرددون الشعار كل يوم في مدارسهم وجامعاتهم وحتى في مراكز عملهم كموظفين، ومعظمهم لم يكونوا قد سمعوا بخطاب الجهاد والخلافة والغزو والحدود، ولم يكونوا يتعلمون في تورا بورا ولم يأتوا من بيشاور ولا وزيرستان...

فما الذي دفع السوري إلى إطلاق لحيته وحمل سلاحه والتحول إلى محارب شريد يعيش في الجبال والوديان، ويحمل على عاتقه سلاحه في مواجهة جيشه الوطني؟ ويختار عنوانه النصر أو الشهادة...

إنني لا أبرر العنف والدم، ولكنني أفسره، لقد صرحت في ألف موقع أنني ضد كل نضال عنيف، ولا شرف لبندقية، وكل قتل حرام، ولكننا مدعوون لفهم سبب هذا التحول الطاغي نحو العنف والانتقام

التطرف ابن طبيعي للظلم والقهر، إنه نتيجة طبيعية لتغول النظام الأمني، وزوار الليل، وبطاقات المراجعة للفروع الأمنية، وهي سلوكيات قاسية تمارس منذ عقود بشكل ممنهج، تنبت ضغينة الكراهية والحقد، ثم انفجرت عبر سياسات النظام الخاطئة والدموية في مواجهة الثوار، فحين تنزل البراميل المتفجرة على أهلك وناسك وحين تشاهد بعينيك استخراج الأطفال من تحت الركام، وتعيش حياة الحصار والقهر والظلم والجوع فلا يوجد أحد يستطيع إقناعك بأفكار غاندي وجودت سعيد، وحين يغلي غضب الثأر في رأس السوري وهو يستلم جثث أولاده من فرع المخابرات فمن يستطيع أن يقنعه بخطاب الوطنية والتسامح والغفران.

لو جاء الخليفة البغدادي في عام 2010 ومعه العشرة المبشرون، ومعه طيلسان الخلافة وعباءة النبي وصولجان الجهاد ودولارات أمريكا، ليعلن الخلافة في دمشق، فكم عدد السوريين الذين سيلتحقون بهكذا مشروع ؟؟؟؟

إنني اجزم أنه لن يجد أدنى تأييد لمشروعه هذا، فالإسلام السوري إسلام متسامح متنور، وبكل تأكيد فإن سوريا التي قدمت للعالم رموز التسامح والاعتدال الصوفي الإسلامي كفتارو والبوطي والسلقيني الذين لا زالوا يعيشون في ضمائر السوريين رموز التزام واعتصام، لا يمكن على الإطلاق أن تجد مكاناً تنمو فيه هذه الأفكار المتوحشة في ذبح الناس وإحراقهم وقطع رؤوسهم باسم الدين.

إنني لا أجهل خطر ثقافة الكراهية الموجودة في مناهجنا الشرعية في السعودية وفي سوريا، ولكن هذه الثقافة يتم التعامل معها بالتأويل والحكمة، وهي على خطورتها غير كافية لتحويل المسلم إلى إرهابي يقاتل مجتمعه وأهله، لولا الظلم الذي يمارس على الناس.

يقولون إن كثيراً من المحاربين القادمين من الخارج لا يعانون من أية مظالم، ولديهم المال والسكن والتعليم والطبابة ومع ذلك يتحولون إلى مقاتلين إرهابيين..

بكل تأكيد هناك أشخاص يحملون أحقاداً مختلفة على العالم وعلى الإنسانية عموماً ولكنهم قلة محدودة في هذا العالم وهم موجودون في المجتمع الإسلامي والمسيحي واليهودي، ونذكر هنا الشاب النرويجي أندريس بريفيك الذي قتل بدم بارد سبعة وتسعين نرويجياً في جزيرة أوتايا صيف

2011 على خلفية قناعاته بتلوث المجتمع النرويجي بالغرباء، ولا يزال في السجن ولا يزال يقول إنه فعل الشيء الصحيح.

مثل هؤلاء وهم بالطبع قلة وموجودون في كل الشعوب وكل الأديان، ولكنهم عندما يفكرون بمشروعهم الجهادي التكفيري لا يطلقونه في بلاد العدالة والعافية إنهم يحتاجون لبلاد مظالم حتى يجدوا على الغضب أعواناً... إنهم يقومون بعمليات إرهابية هنا وهناك ولكنهم لا يستطيعون أن يوفروا حاضنة شعبية لتطرفهم، سيضربون ويهربون، في المترو والأنفاق، ولكنهم لن يجدوا حاضنتهم إلا في بلاد الحصار والجوع والبراميل والقهر والعنف، وهناك فقط سيجدون ألف سبب ليلتحق بهم الشباب الغاضب من الظلم والمشرئب إلى الثأر والانتقام.

وحين تقصف الطائرات بيتك وتقتل الأطفال والنساء، فهل ننتظر من المنكوب ان يبحث عن فريق معارضة سياسي عقلاني لينخرط فيه أم أنه سيبحث عن أشد جماعات التطرف هولاً وذبحاً وانتقاماً ليقوم بالانتقام لأحبته، ولا أشك أن لو كان في البلاد الإسلامية اليوم أشد من داعش لوجدت لها نصيراً وظهيراً، بسبب ما يذوقه الناس من ركام المآثم والمظالم.

الاستبداد هو السبب الأكثر إقناعاً لفكر التطرف والتشدد، وهو الذي يبرر للمحاربين كل سلوك عنيف، فالظلم ينجب الظلم والقهر ينحب القهر، ويوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم.

الجهاد والجيش الوطني.... تشويه مزدوج

لا أشك أن الجهاد الذي أعلنه الرسول الكريم بعد قيام دولة المدينة، هو الجيش الوطني الذي تعرفه الدول الحديثة اليوم، وهو في كل العالم ضمانة الأمن والاستقرار، ويمكن القول إن هذه الجيوش في الدول المتحضرة قد انجزت تقاليد مستقرة منذ سبعين عاماً على الأقل، تمكنت فيها من إيقاف الحروب وبناء مصالح دبلوماسية تناقش في إطارها الصراعات والنزاعات المحتلفة.

والجيش الوطني ضرورة اجتماعية وانسانية، تقرها الشرعة الدولية، ومصدر فخر للشعوب، وهي حق من حقوق الشعوب تحترمها شرعة الأمم، وتوفر لها الموارد الكافية في إطار الدستور والقوانين.

وحين نتحدث عن الجيش الوطني فنحن نتحدث عن تقاليد راسخة صارت تعرفها الأمم المتحضرة، وهي لا تشبه في شيء ما مارسه الاستبداد العربي المتبادل بين السلطة والجيش على الشعب المقهور خلال العقود الماضية، وربما كان من العسير أن يدرك الناس بواقعية ووعي تلك القيم التي تترسخ يوماً بعد يوم في العالم المتحضر عبر تطبيق حقوق الإنسان ومراقبتها على المدنيين والعسكريين.

ولو أن الجيوش الوطنية في البلاد العربية أخذت بمبادئ الشريعة الغراء وهدي النبي الكريم في العدل والإحسان، وأخذت من نجاحات الشعوب المتحضرة تلك الآليات المزدهرة في فرض القانون على سلوكيات الجيش ومحاصرة الفساد والمحسوبية فيه، وبالتالي في إخضاع قراراته ومشاركاته لقرار مجالس الشورى التي تمثل الأمة لأصبح لدينا في البلاد الإسلامية جيوش جهاد تتكامل مع مصالح الأمة ولا تتصادم معها، وتنهل من منبع الرسول الكريم في بناء العدل والإحسان والرحمة في المجتمع.

وأشعر بالحرج حين أكتب في مسؤولية الجيش الوطني في رعاية الجهاد والمجاهدين وأنا أشاهد كل يوم ما يقوم به الجيش السوري في حق الشعب في بلادي، والدمار الماحق الذي يخلفه عن عمد فوق الأرواح البريئة بدعوى الدفاع عن الأمن والاستقلال، ويعتبر هذا الجيش ظاهرة عجيبة في تاريخ الجيوش في العالم، فلم يسبق لجيش وطني أن قام عن عمد بالدبابات والطائرات والصواريخ الوطنية بتدمير مدن بحالها في الوطن وتشريد نصف الأمة والتسبب في مقتل وغياب أكثر من مليون إنسان، وأكثر من ذلك من الكوارث والفظائع التي ستكشفها الأيام.

ولذلك فإن من الضروري أن أصرف نظر القارئ الكريم عن الربط بين الجيش والجهاد في الحالة السورية الراهنة، وآمل أن يقرأ الناس هذا الكتاب وقد تحررت الشام من طغيان هذه القيادة الحاقدة للجيش، وأن تكون سوريا قد بدأت من جديد بتكوين جيشها الوطني على أساس احترام العدالة والقانون.

إن جيش الجهاد الأول ليس إلا نواة الجيش الوطني الذي يتكون عادة في أي دولة محترمة تقوم في الأرض، هو الحاضن الطبيعي للراغبين في الجهاد، وهو الموعد الصحيح لكل أوامر الشريعة في القتال والجهاد ولا نحتاج هنا لتفسير أو تبرير بعد أن اتفق العقلاء في العالم كله على حق الدولة بل واجبها في تكوين جيش وطني للدفاع عن الأرض والإنسان، أو بتعبير الفقهاء واجب الدولة في الدفاع عن الضروريات الخمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال.

يبدو هذا البيان سهلاً ومفهوماً في إطار القوانين الدولية ولكن هل هو كذلك في فهم الجماعات الإسلامية، أو حتى في فهم المجتمع الإسلامي؟

بالتأكيد لا، وسيعتبر هذا اللون من المقال علمنة متعمدة للإسلام، ناهيك عن اعتباره تواطؤاً مع الظلمة الذين يريدون أن يدعموا جيوشهم (الملحدة) بشباب الجهاد الإسلامي....

وهذا الواقع المرير له أسباب كثيرة واضحة ومنها:

الأول: انتشار الفساد في الجيوش الوطنية، وغياب المحاسبة والمساءلة نتيجة غياب الحياة الديمقراطية.

الثاني: اختطاف هذه الجيوش ومقدراتها لخدمة المستبد والطعمة الحاكمة، وتورط هذه الجيوش بالدفاع عن الاستبداد.

الثالث: عجز هذه الجيوش في تحقيق الأهداف التي تزعم أنها قامت من أجلها عجزاً تاماً.

الرابع: إصرار جيوش الاستبداد على أهانة المقدس الديني للأفراد وبناء العقيدة القتالية على أساس التناقض مع الاعتقاد الديني

ولا شك أن هذا التشويه للجيش الوطني لا يقل عن تشويه رسالة الجهاد نفسه، واليوم في الواقع العربي فإن الحديث عن الجيش الوطني يرتبط مباشرة بالحديث عن الفساد والتجاوزات، خاصة إذا ما تذكرنا الامتيازات التي منحتها جيوش الاستبداد، ومنع مساءلتها ومحاسبتها، حفاظاً على هيبة الدولة ومنعاً للتسبب في إضعاف الشعور القومي والوطني.

ويصر الاستبداد على اعتبار الجيش الوطني فوق المحاسبة والمساءلة، ويقوم بتدبير حصانات خاصة لكبار ضباط الجيش والمخابرات لجمايته من المساءلة والمحاسبة وهو ما يوفر بيئة غير

معقولة للفساد والانحراف، وهذا الأمر لم يعد له وجود في العالم المتحضر الذي لا يرى في الجيش أكثر من مؤسسة من مؤسسات الدولة، تحاسب وتراقب وتلزم بالقانون.

ولا يعرف مجتمعنا العربي اليوم محاسبة الجيش إلا في أطر الأفراد والعناصر، أما قيادة الجيش وممارساته فهي فوق النقد، باعتباره اختصاصاً يمارسه رأس الوطن ولا يجوز انتقاده بأي وجه من الوجوه.

وقيام الملوك والرؤساء أحياناً بإجراءات شديدة ضد قائد عسكري يشتد فساده ويفتضح لا يغير في الواقع شيئاً، حيث يجري ذلك في إطار مزاجية الحاكم وليس في إطار قانون يفرض احترامه على الجميع.

وقد أسست علاقة الريب هذه بين المجتمع وبين جيشه الوطني إلى ما يشبه قطيعة بين النخب وبين الجيش الوطني، حيث انسحبت العائلات العريقة من المشاركة في الجيش، وهذه الظاهرة قديمة في المجتمعات العربية، وربما يناسب هنا أن نتذكر أن المجتمع الدمشقي التقليدي مثلاً لا ينظر بروحية إيجابية إلى الجيش، والعائلات الدمشقية تتجنب انخراط أبنائها في سلك القوات المسلحة، وهذا الخيار معروف وشائع ولا يحتاج إلى شواهد وأدلة.

وأما تسخير مقدرات الجيش الوطني لخدمة المستبد فهذا ما مارسه الاستبداد بوضوح خلال العقود الأخيرة، وكان سبباً مباشراً في انهيار الجيش العراقي والليبي واليمني، وفي الحالة السورية اتخذ الأمر واقعاً أشد هولاً، حيث يقوم الجيش بقصف كل مدينة أو قرية خرجت عن طاعة المستبد مهما كان فيها من أبرياء ونساء وأطفال، وعند كتابة هذه السطور فإن أكثر من 250 مدينة وبلدة وقرية سورية تعرضت مباشرة للقصف بالطيران الممنهج، وتعرضت للتدمير، ويتم ذلك كله ببيانات واضحة تصدر من النظام نفسه تحت عنوان ملاحقة الارهابيين.

ولا نريد هنا أن نذهب إلى تحليل سياسي للأحداث الراهنة، بل نشير إليها في سياق ما يعرفه العالم كله، وإحصائيات الشهداء والمجازر والمقابر والجثث التي قضت تحت التعذيب تقدم صورا مرعبة بكل تأكيد، وأمام هذه التجاوزارت الرهيبة فلا يمكن على الاطلاق وصف هذه الجيوش بأنها تخدم مشروعاً وطنياً، ناهيك عن دعوة الناس للالتحاق بها على انها استمرار رسالة الجهاد المقدسة.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى سلسلة من القوانين أصدرتها سلطات الاستبداد وهي تحصن عناصر الجيش وضباطه من المساءلة والمحاسبة، ومنها على سبيل المثال هذا القانون الذي أصدره النظام السوري برقم 549 عام 1969 ويمكن القول إنه مهد للاستبداد الدستوري خمسة وأربعين عاماً ولا يزال:

المادة 16 - لا يجوز ملاحقة أي من العاملين في إدارة أمن الدولة عن الجرائم التي يرتكبونها أثناء تنفيذ المهمات المحددة الموكولة إليهم أو في معرض قيامهم بها إلا بموجب أمر ملاحقة يصدر عن المدير.

المادة-74 لا يجوز ملاحقة أي من العاملين في إدارة أمن الدولة أو المنتدبين أو المعارين إليها أو المتعاقدين معها مباشرة أمام القضاء، في الجرائم الناشئة عن الوظيفة، أو في معرض قيامه بها قبل إحالته على مجلس التأديب في الإدارة واستصدار أمر ملاحقة من قبل المدير.

ومن الغريب أن المرسوم يسميها جرائم ثم يمنع من ملاحقة مرتكبيها!!

وفي هذا السياق فإن من الضروري الإشارة باحترام إلى كل من الجيش الوطني التونسي والجيش الوطني المصري حيث قدمت قيادة الجيشين في ظروف الثورات العربية نموذجاً حضارياً لحياد الجيش عن الحراك السياسي، ورفضه الانخراط في حماية المستبد، والتزامه رسالة الجيش الوطنية في جماية الثغور وحفظ الأمن، وتمت بذلك حماية الاستقرار والأمن الحقيقي للناس وليس للمستبد، وهو ما يلتقي تماماً مع رسالة جيش الجهاد في الإسلام.

ومن المؤسف أن الجيوش العراقية والسورية واليمنية والليبية انخرطت تماماً في خدمة المستبد، واشتبكت مباشرة مع الشعب، وأدى ذلك إلى انهيارها وتشكلت في مقابل ذلك ميليشيات جهادية تكشف أفظع صورة من الريب المتفاقمة بين المتدينين وبين جيوشهم الوطنية، وأصبح من الاستفزاز المقيت أن يقال للناس هذا هو جيش الجهاد فشاركوا فيه.

أما الجانب الثالث الذي أسقط احترام الحيوش الوطنية العربية فهو عجزها التام عن تحقيق الهدف الاستراتيجي الذي قامت لأجله وهو الانتصار للحق العربي في فلسطين ومحاربة المشروع الصهيوني ومنع تمدده، ولا يوجد أدنى مبالغة إذا قلنا إن هذا الهدف قد فشل بشكل مريع، ولم يتحقق شيء من مراميه، وظل هذا الهدف الذي نتطلع إليه خالياً تماماً من أي نجاح حقيقي، وفشلت هذه الحيوش في تحرير القدس وعودة اللاجئين، على الرغم من انخراطها في حروب كثيرة في كافة الاتجاهات، بل إن عدداً منها تخلت نهائياً عن هذه الاهداف حتى في إطار أدبياته وشعاراته، ولم تعد تعنيه في شيء.

أما الجاتب الرابع فهو في الواقع ما يشيء بالغ الإساءة لرسالة الجيش الوطني ويحوله بالفعل إلى أداة للاستفزاز ضد الدين وضد قيم المجتمع ومثله العليا، وفي الجيش السوري والعراقي تحديداً تنتشر ظاهرة ازدراء الدين ومنع مظاهر التدين واحتقارها، ومنع الصلاة والشعائر الدينية في الوحدات العسكرية وهو أمر لا يمكن تبريره ولا تفسيره إلا بالأحقاد الدفينة وهو ما قطع أي علاقة احترام بين المسلم المتدين وبين جيشه الوطني.

ومن المناسب هنا أن أنقل هذا الفصل من كتابي ألف يوم في مجلس الشعب، وذلك في سبيل ما يذلته من حهد لتصحيح هذا اللون من الانحراف، والعمل على بناء الثقة بين الجيش الوطني والمؤمن الراغب في الجهاد.

لست بالطبع خبيراً عسكرياً ولكنني أود القول بأن الجيش يؤدي رسالة شريفة وكبيرة في الوطن ويتيح لأبنائه العمل بحماس من أجل إنجاز مشروع البناء والتحرر.

ومنذ سنوات أقوم بإلقاء المحاضرات في الأكاديمية العسكرية العليا، على المتدربين المرشحين بشكل خاص لمناصب قيادية ووزارية، حيث يتاح لي عادة أن أقدم رؤيتي حول أهم القضايا المعاصرة التي تهمنا كمشاركين في بناء الوطن من مواقع مختلفة، وبشكل خاص حول رسالة الإسلام في بناء مجد العرب، وجدلية العلاقة بين العروبة الإسلام.

وكان وراء اندفاعي لخدمة هذا الحقل ما كنت أشعر به من قبل من الثقافة الريبية التي كنا نتبادلها بين دور المسجد ودور المؤسسة العسكرية، وهو معنى أريد له في مرحلة من تاريخ سوريا أن يتصرم حتى عزف كثير من الناس عن دخول الجيش وتسابقوا لدفع البدل والتهرب من التزامات الحياة العسكرية، وهو ما جعلني أؤدي رسالتي بحماس رجاء أن نتجاوز هذه المرحلة التي عادت علينا جميعاً بالخيبة.

وكنت أشعر بالتالي بالمرارة من الريبة التي ينظر بها بعض ضباط الجيش تجاه أي مظهر إسلامي في الجيش .... ولكن ذلك من وجهة نظري لا يبرر مسؤوليتنا اليوم في بناء الثقة والتكامل بين أبناء البلد الواحد على الرغم من تفاوت مواقعهم في خدمة العمل العام.

وكان ما يؤرقني هو قيام بعض الضباط بمنع الصلاة في الجيش وهو أمر ينعكس سلباً على علاقة الجندي بقيادته، إضافة إلى أنه بالطبع تفريط بطاقة حيوية وحقيقية في المجتمع وهي طاقة الدين الحق الذي يفجر عادة أكبر الطاقات في حياة الإنسان.

في 2006 أتيح لي أن ألقي محاضرة فريدة في قيادة الجيش العربي السوري ضمن مؤتمر سورية في مواجهة التحديات، ولأول مرة يتاح لي أن أخاطب كل الضباط القادة في الجيش العربي السوري بمن فيهم وزير الدفاع ورئيس الأركان وقادة الفيالق والفرق العسكرية، ومع أنني أديت المحاضرة كما أعددت لها، ولكنني وجدت الفرصة سانحة لأرفع عن كاهلي واحدة من أدق المسؤوليات أمام الناس وأمام الله، وهي الدعوة إلى حرية الصلاة في الجيش والدعوة إلى إقامة ندوات دينية وتوجيهية في الجيش العربي السوري.

كانت مطالبتي بإقامة الصلاة في الجيش واضحة وجلية وقدمتها ضمن حاجة وطنية تتصل بالحريات، وقلت لهم: لماذا لا يكون في كل قطعة عسكرية حجرة للصلاة يصلي فيها المسلم ويقدس فيها المسيحي، ونشترك في عبادة الرب الواحد، وقلت: إن الإسلام دين واقعي، وهو لا يأمرنا بترك التدريب والمهام القتالية والانصراف إلى الصلاة بل بإمكان المقاتل أن يصلي متى فرغ من تدريبه، وقد شرع الله أحكاماً خاصة للصلاة في المعركة (صلاة الخوف) نظراً لدقة التعامل مع هذه المسألة، وفي الوقت نفسه فقد طالبت بمحاسبة من يسيء إلى الرموز الدينية أو يمنع الصلاة في الجيش وقلت: إن من يمنع الصلاة في الجيش يغذي الإرهاب ويغري الناس بالالتحاق بالجماعات المتطرفة وهنا يتعين محاسبته وأنا أقترح أن يحال إلى فرع مكافحة الإرهاب، وكذلك أولئك الذين يحتقرون المقدس الديني أو يقومون بشتم الدين أو الرب في الجيش.

لقد كانت تفاصيل كثيرة وحوارات مباشرة مع القادة العسكريين، حاولت فيها أن أعيد الاعتبار والثقة للجيش الوطني، وأرفع واحداً من أهم أسباب الريب بين الناس وبين جيشهم الوطني.

وللأسف فإن العقيدة المستقرة في احتقار التدين والمتدينين استمرت في الجيش، وتم إرضاؤنا بفتات قليل من توجيهات مباشرة بالإذن بالصلاة في بعض القطع العسكرية لا تسمن ولا تغني من جوع.

ومع ذلك فإن عدداً من الكتاب العلمانيين راحوا يتهموننا بالعمل على تحويل البلد إلى نظام متشدد طالباني، وأننا نريد العودة بالبلد إلى العصور الوسطى!! مع أن ما طالبت به لا يتجاوز أبسط حدود الحرية الشخصية وهو موجود في كثير من مؤسسات الدولة أصلاً من قبل، وهو مطبق ومعمول به في سائر بلدان العالم الحر، وأولهم أمريكا التي تخصص للقطع العسكرية راعياً دينياً لإحياء رسالة الروح لدى المقاتل وربطه بالمثل العليا.

إن هذه السلوكيات في تشويه الجيش الوطني مستمرة في عدد من البلاد العربية ، بل إنها صارت جزءاً من العقيدة القتالية لدى بعض هذه الجيوش خاصة ما مارسه الحيش السوري والعراقي في ظل البعث، ولا شك ان هذا الأمر سيجعل ربط الجهاد الشرعي بمشاركة هذه الجيوش أمراً في غاية الاستحالة، ولا يمكن التعويل عليه أبداً.

كما أن تشويه الجهاد مستمر لدى الحركات الجهادية القائمة على الجهل والثار، والمشهد لاذي قدمته شعارات الجهاد في القاعدة وبوكو حرام وداعش لا تسمح بأي تقارب في الفكرة من حيث المبدأ وسيبدو الحديث عن الجهاد في ظل الحيش الوطني مرفوضاً بالمطلق إذا ما تم استحضار هذه الصور المتناقضة إلى الغاية، والتي لا يجمع بينها شيء مشترك على الإطلاق.

ولكن تعميم هذه الحالة على الواقع العربي والإسلامي غير مستقيم، فهناك في إطار الجيوش العربية والإسلامية آفاق كثيرة من المشترك مع ثقافة الجهاد، وتبدو التجربة قابلة تماما للفهم في ظل الجيوش التي تلتزم خطاباً إسلامياً في سلوكها ومشاركاتها وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى الجيش المغربي والجيش الأردني وجيوش الخليج العربي، وفي البلدان الإسلامية الجيش الماليزي والأندنوسي والباكستاني والبنغالي، وهي جيوش تحتفظ بقدر كبير من القيم الإسلامية في الخطاب الرسمي والأنشطة المرتبطة بالعقيدة القتالية، ولو أن مركز أبحاث تصدى لرصد هذه المشتركات، لأظهرت لنا الأرقام والإحصائيات إمكانية ربط أماني الشباب المسلم فيها بالنفير إلى الجهاد الشرعي تحت راية العلم الوطني، والخطاب الإيماني الذي يحيط بهذه المشاهد.

إن كثيراً من حركات الجهاد التي قامت لمواجهة الظلم والقهر كحركات المقاومة الفلسطينية بشكل خاص، والحركات الجهادية في سوريا والعراق وليبيا واليمن يمكن أن تقترب أيضاً من الانخراط في الجيش الوطني الجديد بعد سقوط الاستبداد إذا هو قدم خطاباً جهادياً يحترم قيم الإسلام وشعائره وممارساته، ويحقق الأهداف التي قامت من أجلها هذه الحركات الجهادية وهي أهداف لا تختلف عن أهداف الجيش الوطني في حماية الأرض والعرض والدين، ورد أطماع الكفار المحاربين، وهي قيم تلتقي عندها اهداف الجهاد الشرعي والنضال الوطني في معظم بلاد العالم الإسلامي.

ولا شك أن عدداً من الجيوش الإسلامية والعربية كالجيش المصري والتركي والتونسي لا تملك ما يكفي لإنجاز هذا التقارب، بل إن أدبيات هذه الجيوش لا تزال تصر على وجوب الفصل بين الدين وبين السياسة وبشكل خاص في الحياة العسكرية، بل تصر العلمانية التركية على جيش بدون دين، فيما يريد الجيش المصري ممارسة خطاب وطني مصري، وقد ازدادت الرغبة بتحييد الجيش عن المعاني الدينية بعد الأحداث الأهيرة وفي إطار التركيز الكبير على الدور القبطي في مصر والمؤسسة العسكرية على وجه الخصوص.

لا يمكن لهذه الدراسة أن تقدم تقريراً مفصلاً عن واقع الجيوش العربية والإسلامي، إنها محض مقاربات، ولكنني البحث الميداني يمكن أن يقدم أدلة أكثر دقة في سبيل توحيد الجهد العسكري بين مطالب الحركات الجهادية وبين عقيدة الجيش الوطني القتالية وتقاليدها.

ويمكن أن نقدم هذه المقاربة لتحليل اقتراب الجيوش في الخوض العربي والأحواض المجاورة وابتعادها من قيم الخطاب الديني، وبالتالي إمكانية اندماج أو انسحاب أصحاب المقولة الجهادية في الجيش الوطني[77]،

[77] تم استبعاد اليمن وليبيا من هذه النتيجة نظراً للتحولات الحاصلة حالياً وعدم وضوح الرؤية

جيوش تتبنى الخطاب الجهادي، وتفرض الشعائر الإسلامية في الوحدات القتالية

- **إيران والخليج العربي والمغرب والسودان وموريتانيا والأردن وفلسطين**

جيوش تتبنى الخطاب الوطني وترفض التعبير الجهادي، وتفصل بين الدين والدولة

- **تونس ومصر والجزائر**

جيوش تصر على الخطاب الحزبي والفئوي، أو تعلن علمانية الجيش وترفض أي مظاهر للتدين أو الشعائر فيها

- **سوريا والعراق أيام البعث، وتركيا ولبنان**

ويمكن القول إن الجهاديين في دول القائمة الأولى ينبغي أن يستوعبوا تماماً في العمل العسكري الحكومي بوصفه جهاداً تنطبق عليه الشروط الفقهية المقررة في أحكام الجهاد، ومن الواقعي أن يهتم الجيش في هذه البلدان بالتعبير والشعائر والعقيدة الجهادية، وأن يلتزم خطابه تلك الأدبيات التي حملها المجاهدون خلال التاريخ الإسلامي فهذا كله متاح وممكن.

ومن الممكن أن تقيم الادارات الدينية والسياسية لهذه البلدان برامج إدماج وتوعية يشترك فيها الجهادي بالوطني، وتهف إلى توفير بيئة جهادية مشابهة لما يستقر في ضمير المسلم من نبل رسالة الجهاد وغاياته، وبذلك يمكن استيعاب أكبر عدد من ذوي الميول الجهادية في الجيوش الوطني عبر برامج خاصة.

أما في في مصر وتونس والجزائر لا تزال الحاجة مؤكدة لبذل المزيد من الجهد للتقريب بين الجهادي والوطني في فعاليات الجيش، وتحتاج هذه الجيوش لبرامج إضافية وقوانين ضابطة لتعزيز العلاقة الوثيقة بين الوطني والجهادي، والتوجه نحو خطاب يحترم القيم الدينية ومعالجة كل القيم التي أدت إلى القطيعة بين الجيش الوطني والاستنفار الجهادي.

ومن المؤلم ان ممارسات الجيش المصري والجزائري في مواجهة الإسلاميين في الفترة الأخيرة لم تكن حكيمة أبداً ووفرت ذرائع متزايدة لتحول المتشددين إلى العنف، وأخشى أن يؤدي ذلك غلى انفجار الاستقرار الاجتماعي من جديد.

قناعتي إنه لا يمكن لجيوش هذه الدول تجاهل الخطاب الجهادي وتحييده، بل يجب العمل على برامج عميقة ومؤثرة لتوفير البيئة الجهادية في الجيش الوطني واستيعاب أكبر عدد ممكن من ذوي الميول العنيفة في وحدات عسكرية تتبنى القيم الجهادية وتعمل في ضوء الفقه الإسلامي.

أما في القائمة الثالثة فمن الواضح أن الجيش العراقي والسوري البعثي قد حصد نتيجة الشقاق المتعمد الذي مارسه ضد التوجه الإسلامي خلال عقود، وهو مأ أدى للثورات الجامحة التي قاومت الاستبداد، ولا شك أن الاستبداد استشرس في مواجهة مطالب الحرية وقوافل الجهاد، ووصلت سوريا والعراق إلى اعظم كارثة بشرية ومجتمعية خلال القرون الاخيرة إن لم نقل خلال التاريخ كله.

وفي الحالة التركية، فإن كاتب السطور يعتقد أن حضور الحركة الإسلامية ووعيها في إدارة البلاد قد تمكن من تجنيب البلاد الكارثة، وعلى الرغم من ان الجيش التركي يحمل العقيدة العسكرية العلمانية بصرامة وحزم، ولكن وصول الإسلاميين للحكم في تركيا وتعزز مواقعهم فيه خلال العشرين عاماً الأخيرة، قد جنب البلاد هذا اللون من الانفجار، ولا أشك أن الأتراك العلمانيين لو استمروا في المضي ببرامجهم الأتاتوركية إلى النهاية لتسببوا أيضاً في مواجهة بشعة ودامية بين الجيش وبين الناس.

إنه من المؤكد أن الجيش التركي ليس جاهزاً ليتحول إلى جيش جهاد لاعتبارات كثيرة، ولكنه على الأقل تخلى عن فكرة محاربة الشعائر الدينية في الجيش، وأذن بتحولات هامة، ولا زال مطالباً بالمزيد ليستوعب التيارات الجهادية التي تتخلق في تركيا بشكل تلقائي كما هو الحال في سائر البلدان الإسلامية.

وفي لبنان فإن خصوصية التنوع الطائفي والاجتماعي تحول دون تقارب الجيش الوطني مع ثقافة الجهاد، وقد أدى ذلك إلى سلسلة من الانتهاكات الخطيرة والمواجهات الدامية بين الجيش وبين الفصائل الجهادية، وقد حسم الأمر في الطائفة الشيعية بسبب وجود فصائل جهادية خارج الدولة تقاوم الاحتلال وتستطيع ضم أفراد الشيعة الراغبين في الجهاد، وبالطبع نحن نقصد هنا الجهاد ضد إسرائيل، ولا نقصد أبداً هذا التورط المهين لجزب الله في الشأن السوري وتحوله إلى أداة صراع طائفي بغيض.

ولكن المشاعر الجهادية السنية لم تجد سبيلها للتفاعل وظلت قلقاً مستمراً على الدولة الوطنية والعيش المشترك، وكان آخر تجلياتها ظاهرة الشيخ أحمد الأسير الذي حاول أن يقيم نظاماً جهادياً خاصاً بالسنة خارج الدولة ولكنه مني بإخفاق كبير.

الاتصال والانفصال بين الجهادي والوطني:

إن ما ندعو إليه من تقارب وتكامل بين رسالة الجيش الوطني وبين أماني الجهاديين، لا يمكن تحقيقه بسهولة ويسر، وإن ما نقدمه من الأدلة والبرامج في سبيل ذلك لا يمر بسهولة، وسيواجه بكل تأكيد بصوت الرافضين، الذين يرون ضرورة الفصل بين الجهادي والوطني، وهو تيار عريض موجود في الضفتين.

إن إدخال عقيدة الجهاد في الجيش الوطني وبناء ثقافة عسكرية تستلهم من القرآن والسنة وحروب التحرير من الغازي الرومي والفارسي والصليبي والمغولي والاستعماري، وإظهار دور الدين في بناء إرادة الاستقلال والتحرر ستكون بكل تأكيد مدخلاً حقيقياً للمصالحة بين تيارات الجهاد وبين الدولة الوطنية وجيشها الاحترافي.

وفي هذا السياق يتعين على المؤسسة العسكرية ان تعقد دورات تأهيل وتدريب لكوادرها وقياداتها للاطلاع على ما قدمه الفقه الإسلامي تاريخياً من شروط الجهاد الشرعية وهي شروط تتكابق تماماً مع العقيدة العسكرية في الدول المتحضرة ، من وجوب حصر السلاح بيد الدولة وعدم جواز القتال تحت راية عمية، وتحريم الاستهتار بدماء الناس، ورفض الغزو ابتغاء المكاسب والمناصب، والأبواب التي وفرها الفقه الإسلامي لإنهاء الحروب، وضرورة تحرير ما بين جيش الجهاد والدولة الوطنية من نقاط التقاء وافتراق.

ويجب من جانب آخر مناقشة الفهوم الفقهية المتطرفة التي شرعنت الانخراط في القتال بدون ضوابط شرعية، والرد بلغة فقهية وعلمية سليمة على ممارسات الجماعات التكفيرية التي ترفع راية الجهاد وهي أبعد ما تكون عن فقهه وضوابطه.

ويتعين أن تنطلق هذه الدراسات من روح الشريعة المتكورة والمتجددة، التي قامت على أساس رعاية المصالح للعباد، ومسؤولية الجهاد في حماية الدين والنفس والعرض والعقل والمال، وحماية المستضعفين في الأرض من كل ملة ودين، وأنه لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان، وأنه

حيثما كانت مصلحة الأمة فثم شرع الله، وأن ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله مسن، وأن أمرهم شورى بينهم، وغير ذلك من النصوص الكلية التي أصلها الفقهاء وخاصة ما قدمه الفقيه الجليل الشاطبي في الموافقات.

وينبغي أن تدخل الوثائق الجهادية التاريخية للرسول الكريم وللخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر في تحريم الاعتداء والبغي، والتزام مصلحة الأمة العامة، وتدريس هذه الوثائق باعتبارها نصوصاً رءيسة في الجهاد، ومن هذه الوثائق: وثيقة المدينة المنورة، ووثيقة نصارى نجران، وكتاب أبي بكر للمجاهدين، والعهدة العمرية وغير هذه المن الوثائق التي تعكس قيماً جهادياً لا تشبه في شيء هذه الممارسات الوحشية التي تتم اليوم ممارستها باسم الجهاد.

وأياً كانت توجهات تلك الدراسة، ومهما كانت الأدلة التي تقدمها دامغة ومقنعة فإن فريقاً كبيراً من الجانبين سيظل رافضاً لمبدأ الدمج بين الديني والوطني في الحياة العسكرية، وسيظل مجاهدون كثير يرون في هذه الجيوش الوطنية أدوات للشرك والكفر ومحادة الدين، ولن يقبلوا منها أي خطاب وطني، وسيظل منظروها يرون أن حب الوطن لون من الشرك والمحادة للانتماء للدين، وأن أي جيش يتحدث عن غايات وطنية وقومية وشعبية هو جيش محاد للجهاد لا يجوز الانتساب إليه.

وفي هذا السياق أنقل لك رأي الشيخ ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين تعليقاً على حديث حب الوطن من الإيمان:

قال الشيخ ابن عثيمين: "حب الوطن من الإيمان" وهو مشهور عند العامة على أنه حديث صحيح، وهو حديث موضوع مكذوب، بل المعنى أيضاً غير صحيح بل حب الوطن من التعصب. اهـ

وقال: ونحن إذا قاتلنا من أجل الوطن لم يكن هناك فرق بيننا وبين الكافر؛ لأنه أيضا يقاتل من أجل وطنه . والذي يُقتل من أجل الدفاع عن الوطن فقط ليس بشهيد، ولكن الواجب علينا ونحن مسلمون وفي بلد إسلامي ولله الحمد ونسأل الله أن يثبتنا على ذلك ، الواجب أن نقاتل من أجل الإسلام في بلادنا

أما مجرد الوطنية فإنها نية باطلة لا تفيد الإسلام شيئا ، ولا فرق بين الإنسان الذي يقول إنه مسلم والإنسان الذي يقول إنه كافر إذا كان القتال من أجل الوطن لأنه وطن.

ثم قال: الحقيقة إن الذي ينبغي علينا هو أن نوجه شبابنا إلى التحمس للدين، وليس للوطن من حيث إنه وطن، ولهذا ترك الصحابة أوطانهم في الفتوحات الإسلامية وذهبوا يسكنون الكوفة والبصرة والشام ومصر؛ لأن وطن المسلم هو ما يستقيم به دينه، فكوننا نربي الأجيال على الدفاع عن الوطن أو ما أشبه ذلك ، دون أن نشعرهم بأننا نحمي وطننا، أو ندافع عن وطننا من أجل ديننا ، لأن وطننا والحمد الله – أعني بذلك المملكة العربية السعودية – هي من خير أوطان المسلمين إقامة لدين الله ، فإذا كان الإنسان يريد بالوطنية ، أي أن وطننا هو أحسن الأوطان في الوقت

الحاضر ، بالنسبة لإقامة الدين ، فأنا أدافع عن وطني لأنه الوطن الذي يطبق من أحكام الشريعة ما لا يطبقه غيره ، وإن كان عندنا خلل كثير ، فهذا لا بأس ، أما مجرد الوطنية فهذه دعوة فاشلة. [78]

ومن جانب آخر فسيبقى عتاة العلمانيين لا يرون في الجهاد الإسلامي إلا صورة الحرب العتيقة من الغزو والنهب والسلب، وأن أي إقحام للدين في الخطاب العسكري هو سلوك غير وطني وسيؤدي إلى منع العلمانيين من أي مناصب في الجيش وإلى فرض الجزية على أبناء الوطن من النصارى، ومنع الطوائف من المشاركة في الجيش وتحويله إلى كتائب وألوية دينية لا علاقة لها بالوطن والقانون.

ونحيل في ذلك على كتابات د. رفعت السعيد نموذجاً لتفكير اليسار العربي بوجوب القطع التام بين القيم الدينية والواقع الوطني، وهو تيار يزداد تطرفاً كل يوم، وسيظل عقبة حقيقية في وجه الجهود التي تهدف إلى توحيد الوطني بالجهادي، واستقرار الجهاد الشرعي تحت راية الجيوش الوطنية التي تحترم أحكام الإسلام وقيمه ومبادئه العليا.

---

[78] **[الباب المفتوح 41-50/ص 37**

الجهاد اليوم.... جهاد رسول الله

لو قدر لرسول الله أن يكون بيننا اليوم، وأن يشهد بنفسه هذه التطورات العالمية الكبيرة التي غيرت كل شيء في طبيعة العلاقات الدولية في الأرض، كيف سيكون خطابه الجهادي وكيف سيكون مشروعه للقاء بين الوطني وبين الجهادي؟

لا أشك أبداً أن رسول الله لو كان بيننا اليوم لأكد الحقائق الأولى التي جاء بها في رسالته من الرحمة والسلم والحب والإخاء، ولا أظن أنه سيلجأ أبداً لأي سلوك عنيف في قيام دولته، وسيقوم بالضبط بما قام به في المدينة.

فقد كانت المدينة هي مشروع هجرته الرابع بعد الحبشة والحيرة والطائف، حيث لم يتمكن في أي من هذه البلدان من تأمين انطلاق الدولة الإسلامية بدون دماء أو عنف، وحين اختار المدينة فإنه مارس فيها نصالا سلميا تاماً، يتطابق مع السعي الديمقراطي الحضاري الذي تمارسه الحركات الإسلامية في العالم المتحضر، وبعد ثلاث سنوات من العمل الدؤوب بقيادة سعد بن معاذ وأسعد بن زرارة وسعد بن عبادة وهم زعماء المدينة الذين اعتنقوا الإسلام بدعوة الصحابي السابق مصعب بن عمير، قرر الرجيل إلى المدينة المنورة بعد أن توفرت له أغلبية معقولة، وأصبحت المدينة مستعدة أن تستقبله بنشيد الفرح والبهجة والرضا: طلع البدر علينا .. من ثنيات الوداع، وهناك قرر أين يبدأ إقامة دولة المدينة، على أسس تحقق المصلحة والخير للجميع.

وتمكن خلال عام واحد من إنجاز ثلاث وثائق هامة الأولى داخلية تنظم علاقة المهاجرين بالأنصار، والثانية محلية تنظم علاقة النبي بأهل المدينة ممن لم يدخلوا في الإسلام، والثالثة معاهدة واضحة مع يهود أهل المدينة تؤمن لهم العيش الكريم في المدينة، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، إلا من ابتغى دسيعة ظلم، وللأسف فقد سقط اليهود في ثلاث مرات متتالية في الكيد للدولة النائشة وقد تم التعامل مع هذه الحالات المتتالية بما يتناسب مع مصالح الدولة الناشئة في قينقاع والنضير وقريظة.

وفي إطار الجهاد فإنني لا أشك أبداً أن الرسول الكريم سيوحد السلاح تحت إشراف الدولة وحدها، وسيعتبر الجيش الوطني هو المسؤول عن الجهاد، وسيكون مصير أي تنظيم مسلح خارج الدولة مصير المرتدين الذين حاولوا أن يرفعوا السلاح في وجه الدولة فتمت مقاتلتهم بصرامة وحزم حتى تفرقت جيوشهم وانتهت أطماعهم.

ولكنه أمر مؤسف مرير أن نتحدث عن اندغام الجهاد في الجيش الوطني ونحن نرى أن الجيوش الوطنية ليست مؤهلة لاحتضان خطاب الجهاد، وليست قادرة على اكتساب ثقة المجاهدين بعد أن أصبحت هذه الجيوش الوطنية غارقة في الفساد أو خدمة الاستبداد وهو ما يحاول تماماً دون أداء رسالتها النبيلة.

وهنا يمكن أن نلاحظ الأمور التالية وهي اتفاقية تقريباً بين كتاب السير:

- **لم يقم رسول الله على الإطلاق بأي عمل عنيف ولم يأذن كذلك باي عمل عنيف في غمار رسالته الدعوية التي استمرت قرابة ثلاثة عشر عاماً قبل أن يتحمل مسؤولياته كدولة بعد الهجرة إلى المدينة.**
- **لم يقبل على الإطلاق اللجوء إلى الوسائل السياسية العنيفة في التعامل مع خصومه وأعدائه، وقد كان بالإمكان تنفيذ أعمال اغتيال لخصومه الشرسين كأبي جهل وأبي لهب وعتبة وشيبة، ولكنه لم يلجأ لشيء من ذلك، ولم يذكر أتباعه ولا خصومه أبداً أنه استعمل هذه الوسائل العنيفة.**
- **لم يلجأ خلال توليه شؤون الدولة لأي عمل تزر فيه وازرة وزر أخرى، فقد كان لديه الفرصة ان يحتجز نساء خصومه أو أبناءهم وأن يفاوض عليهم بعد ذلك ولكنه لم يفعل هذا أبداً، على الرغم من أعداداً من أصحابه احتجزتهم قريش وعذبتهم دون وجه حق، وأمضوا في السلاسل والزرد نحو عشر سنين، وكان بإمكانه أن يوجههم كانتحاريين ثائرين ضد رؤوس الكفر من أهصامه في مكة، ولكنه لم يشأ أن يقابل سلوك الحاهلية بانتقام جاهلي، وظل حريصاً على سمعة الإسلام وكرامته.**
- **نفذ بدقة كل الاتفاقيات التي عقدها مع خصومه على الرغم من أنها كانت تمثل إجحافاً في حقه وحق أصحابه في كثير من الأحيان، وفي صلح الحديبية قام بتسليم قريش الصحابة الذين هاجروا إليه في حين ان قريش لم تخفف تعذيب أصجابه الذين كانوا محتجزين لديها.**
- **سجلت في السيرة النبوية حوادث محدودة لإعدام بعض المتورطين بالتآمر ضد الدولة مثل كعب بن الأشرف، و؟؟؟؟ وهي لا تزيد عن حادثتين اثنتين خلال تاريخ الدولة النبوية في المدينة المنورة وهي استثناء من الاصل الذي أشارت إليه هذه الأصول التي نذكرها.**
- **سجلت في السيرة النبوية حوادث إعدام قاسية ضد بعض العرنيين من اللصوص وقطاع الطرق، وهي حوادث قليلة قد جاء فيها العقاب على سياق ما كان مشهوراً ومعروفاً في تلك المرحلة من التاريخ في عقاب اللصوص وقطاع الطرق في العالم، ولا ترتبط هذه المسائل بالجهاد بل بالقضاء.**

وفي إطار دعوته للجهاد فإنني على يقين أنه سيحقق اليوم مبادئه التي طبقها في سيرته الشريفة، وعلى رأسها هذه المبادئ:

- **لن يكون السلاح إلا في يد دولة حقيقية لها أرض وشعب ووثيقة، تلقت بيعة صحيحة من غالبية حقيقية من أهل البلد الذي أعلن قبوله للإسلام.**

وفي هذا السياق نذكر قول النبي الكريم: من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاش من مؤمنها ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه[79]

- **لن يكون هناك جيشان بل جيش واحد يتولى الدفاع عن الإنسان والأوطان، وسيكون خطاب الجهاد الذي يبعث إرادة التضحية جزءاً من رسالة الجيش الوطني في حماية الضروريات الخمس كما قررها الشاطبي الدين والنفس والعرض والعقل والمال.**

وفي هذا السياق نورد ما أخرجه البخاري ومسلم من وجوب الامتناع عن حمل السلاح إلا في سياق الدولة والجماعة: قال حذيفة بن اليمان: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال (نعم) . قلت وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال (نعم وفيه دخن) . قلت وما دخنه ؟ قال (قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر) . قلت فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال (نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها) . قلت يا رسول الله صفهم لنا قال (هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا) . قلت فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم) . قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال (فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[80]

- **لن يستخدم السلاح لفرض شعائر الإسلام أو لإرغام الناس على تطبيق أحكامه، فقد عاش في المدينة المنورة إلى جواره مشركون ويهود ونصارى ولم يكره أحداً منهم على تغيير دينه.**

وفي هذا السياق نشير إلى الآيات الكريمة: لا إكراه في الدين، وقوله تعالى وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وقوله تعالى: فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم.

- **لن يكون قرار الحرب بيد فرد مهما كان موقعه، ولن يستطيع أي حاكم أن يحتكر قرار الناس، وسيتعين على كل حاكم أن يلتزم بهدي النبي الكريم في قوله: أشيروا علي أيها الناس قبل ان يشرع في أي حرب، وسيظل قرار الحرب في الدائرة التي قررها القرآن الكريم: وأمرهم شورى بينهم.**
- **لن يساق الأفراد للحرب حين يقرر الزعماء، ولا يمكن الشروع في حرب إلا بعد أن يقر جميع من سيشارك فيها بإيمانهم بعدالة هذه الحرب وجدواها وضرورتها، ولا يجوز أن يساق أحد إلى حرب لم يقرر صراحة أن نؤمن بها ومستعد للتصحية والبذل فيها**

---

[79] صحيح مسلم ج3 رقم 1476

[80] صحيح البخاري ج6 رقم 2595

وفي هذا السياق نتذكر موقف النبي الكريم قبل غزوة بدر وهو يسأل المحاربين بوضوح: أشيروا علي أيها الناس، ومن المؤكد أن قرار الحرب لم يتخذ إلا بعد أن تحققت إرادة الأنصار الذين هم غالبية المحاربين في بدر، على الرغم من علم الجميع بأنهم أمام رسول اللهز

- **إن رسالته للعالم ستكون هي الدعوة والموعظة الحسنة، ولن يرسل الجيوش لاجتياح البلاد المجاورة، وحين يرسل له الروم أو الفرس من يحاربه فسيدافع عن أرضه ببسالة، وسيطرد المحتل الرومي والفارسي من أرضه العربية ولكنه بعد ذلك سيسعى إلى إقامة علاقات حسن جوار مع الدول المجاورة ولن يبدأهم بحرب.**

وفي هذا السياق فإن خير تعبير عن هذه الحقيقة هي قوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.

- **قيام الحروب وإنهاؤها سيتأسس على مصالح الناس، وقرار الخبراء السياسيين والحربيين وليس على فتاوى الفقهاء ورجال الدين، ولن يملك أحد أن يقرر حكم الله في مسالة حرب أو سلم، بل سيكون الاختيار هو شورى الناس ورأيهم ومصلحة الأغلبية، وفق ما يترتب على القرار من عدل أو ظلم، وهذا بالضبط ما تمارسه أرقى الدول المتحضرة.**

وفي هذا السياق نشير إلى قول النبي الكريم لبريدة بن الحصيب: فإن أرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله أم لا[81]

- **المواثيق الدولية ستكون محل احترام الدولة المحمدية كما جرى في سيرته الكريمة، وأجزم بأنه سيكون صانع هذه الوثائق الدولية على وجه أكثر عدالة وواقعية، وأجزم أن توقيع هذه الوثائق سيكون في مكة والمدينة، لانها الأرض التي أعلنت في ذلك العهد البعيد بصراحة وجوب التعاون الدولي: وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعاونوا.**

وفي هذا السياق سجل النبي الكريم رغبته بالتعاون الاجتماعي والسياسي مع المختلفين اعتقاداً في سبيل الأهداف النبيلة عبر قوله: لقد شهدت في الداهلية حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت[82].

- **ستقام أفضل علاقات حسن جوار، على أساس مصالح الناس من الطرفين، ولن يكون دخولهم للإسلام شرطاً في حسن الجوار، لقوله تعالى: وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**[83] **فقال جنحوا للسلم ولم يقل دخلوا في الإسلام.**

وفي هذا السياق نورد هذه العبارة الذهبية للرسول الكريم: والذي بعثني بالحق لا يدعونني إلى خطة رشد تعظم فيها حرمات الله إلا أجبتهم إليها.

- **العهد الذي تمنحه الدولة المسلمة للدبلوماسية والاعلام والتجارة سيكون ذمة للمسلمين لا يجوز خفره ولا نكثه ولا التنكر له، وسيكون المعاهدون في أمان الدولة المسلمة، وسيكون الاعتداء على اي منهم بمثابة اعتداء على كرامة الأمة وتاريخها ورجالها.**

---

[81] سنن النسائي ج5 ص177

[82] السيرة النبوية لابن كثير ج1 ص 374

[83] سورة الأنفال 61

وفي هذا السياق نشير إلى الحديث الشريف: ألا من قتل نفسا معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة 84

- **إن الحدود الشرعية ستكون مرتبطة بتحقيق العدالة والأمن، ولن يستقر تطبيق الحدود إلا بعد أن تستقر الدولة المسلمة، وتتعزز بيعتها الشرعية ويقبل سائر أفرادها بالاحتكام إلى الإسلام في المعاملات، وسيكون للمعاهدين أحكامهم وآدابهم وحقوقهم التي لا يمسها سوء.**

وسيتم تطوير آلات الحد ووسائله بحيث يتحقق الردع اللازم للمجرمين، وسيتم تشريع عقوبات رادعة للجرائم المستحدثة التي لم ينص عليها قرآن ولا سنة، تطبيقا بقاعدة ما يتناهي لا يضبك ما لا يتناهى.

وفي هذا السياق نذكر كلمة النبي الكريم: ادرؤوا الحدود بالشبهات فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة.85

وفي سياق تطوير آلة الحد والعدول عن العقوبة الجسدية إلى العقوبة الإصلاحية كما استقرت على ذلك خبرات الحقوقيين في العالم كافة، نذكر بكلمة الرسول الكريم: أنتم أعلم بأمور دنياكم[86]

---

[84] الحديث مشهور والنص من رواية الترمذي في الصحيح ج4 ص 78

[85] سنن البيهقي ج2 ص12

[86] رواه البخاري ومسلم، وهو عند مسلم ج7 ص95

الإسلام والحضارة.. نحو التخلي عن الحرب

ومع كل ما نقرره في أمر الجهاد، ولكنني لا أكتم رسالتي في وجوب أن نرسم للعالم مصيراً يتخلى فيه عن الحرب، وأعتقد جازماً أن هذه هي رسالة الجهاد البعيدة، وهي قيام عالم متوازن لا يفكر فيه أحد بالاعتداء على أحد.

ومع أن الأحلام الرومانسية لا تحكم صورة التاريخ ولكن ما يجب بيانه أن الدول المتحضرة استطاعت على الأقل ان تدفع عنها شبح الحرب، وأن تجد حلولاً راسخة لنزاعاتها وخلافاتها بعيداً عن طبول الحروب، أو التهديد بها.

ويمكن القول إن الحرب العالمية الثانية كانت نهاية الصراع بين الكبار، ومضت سبعون سنة على وقف الحروب في العالم المتحضر، على الرغم أن طبول الحرب لم تتوقف بعد في البلاد المتخلفة والمنكوبة، وفي العقد الأخير فإن الحرب أصبحت للأسف شانا إسلامياً بامتياز، ويهرب المسلمون من تقرير مسؤوليتهم بتوزيع الاتهامات على الأمم المتحضرة.

إن الجهاد الإسلامي نفسه محكوم بمصالح الأمة، وحين تتوفر مصالح الأمة بدون حروب فإن الجهاد قابل مباشرة للتحول إلى الأنواع الأخرى المتاحة، من جهاد النفس والمال والكلمة والطبابة والغياث والتعليم والإعلام والتحسس والدعاء، وهي كلها أشكال من الجهاد المشروع في صدر الإسلام ولا زالت قادرة على تقديم صورة مختلفة عن الإسلام وعن حضارته في الزمان والمكان.

وقد لخص القرآن الكريم موقفه الاستراتيجي في التوجه نحو السلم بآية قرآنية بالغة الدقة: يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين.

وخطوات الشيطان كما تصفها الآية ليست إلا ذلك السعي المحموم نحو الحرب وجنونها، فقد ورد اصطلاح السلم يقابله اصطلاح خطوات الشيطان، وهو العنف الذي يمارسه من يتبع خطوات

إبليس، وهو ما يبرره الاستبداد تحت عنوان القتال من أجل المصلحة العامة، ومواجهة الإرهاب وحواضنه، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون.[87]

وهذا اللون من العداء الذي يمارسونه لا يتوقف عند لون من الشر بل إنه يبرر لهم استعمال كل الأسلحة الشريرة بما فيها الجرثومي والكيماوي، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد.[88]

وفي الحديث الشريف: لا يدعونني إلى خطة رشد تعظم فيها حرمات الله إلا أجبتهم إليها[89]، وفي القرآن الكريم: وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله.[90]

وقناعتي أن الحرب في الإسلام ليست خيار النبي ولا مشروعه، وفي القرآن الكريم: كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون[91].

وفي القرآن الكريم أيضاً: فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً.[92]

وفي سياق بيان علاقة المسلم بالآخر فإن القرآن أوضح في سياقات متعددة أن رسالة المسلم هي درء السيئة بالحسنة، قال تعالى: ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذاالذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم.[93]

وقد قدمت في هذا البحث دراسة تاريخية لإعراض النبي الكريم عن القتال وتجنبه للحرب ما استطاع، وقد فعل ذلك، ولكنه وجد نفسه في أيام محددة مضطراً للمواجهات والالتحامات التي وقعت ست مرات خلال تاريخ النبوة.

ولا شك عندي أن هذه الثقافة التي لها ألف شاهد في القرآن الكريم وفي السنة المشرفة كانت كافية لوقف العنف في الأرض والتحول إلى السلام، لو قدر لهذه الرسالة أن تسير في ركاب الهدي النبوي الأول، ودعوات الراشدين الأولى في التوقف عند حدود التحرر من المعتدين، ولكن الأمة للأسف غرقت في سياق تدافع الأمم بفائض القوة ورغبة التنافس السياسي، وسيبقى السلام من وجهة نظري هو الهدف الاستراتيجي لرسالة الإسلام التي جاءت دعوة للسلام والرحمة.

وأكاد اجزم بأن الحرب في العالم المتحضر أيضاً آيلة إلى أفول، وفي كل يوم يضع الإنسان شروطاً جديدة وضمانات جديدة تجعله إلى السلم أقرب وإلى الحرب أبعد، وقد نجحت المجتمعات المتحضرة

---

[87] سورة البقرة 11
[88] سورة البقرة 205
[89] الروض الأنف 7 ص 66
[90] سورة الأنفال 61
[91] سورة البقرة 216
[92] سورة النساء 90
[93] سورة فصلت 34

في السبعين عاماً الأخيرة من تجنب الحروب، ويبدو أنها لن تعود إليها أبداً، على الرغم من انخراطها في عدد من الحروب في البلاد المتخلفة أو النامية، وكانت مشاركاتها في هذه الحروب تتم عبر إقناع البرلمانات بوجوب التدخل حفاظاً على الأمن الوطني، ومع ذلك فقد أصبح الإقناع بذلك أكثر صعوبة، وفي السنوات العشر الأخيرة فشل الحكام البريطانيون والأمريكيون والفرنسيون في إقناع برلماناتهم بوجوب الانخراط في الحرب في سورية على سبيل المثال، وهو أمر يجوز تفسيره بأنه رفض للحرب وانحياز للسلم، كما يجوز تفسيره بأنه تجاهل لعذابات الشعوب المنكوبة واستخفاف بالجانب الإنساني فيها.

ويتم اليوم إلغاء الحرب في المجتمعات المتحضرة عبر نضال حقوقي مستمر، يستند إلى مرجعيات قانونية واضحة، فقرار الحرب لم يعد في يد الفرد وإنما أصبح بيد المؤسسات الديمقراطية المنتخبة، والقانون الدولي يشتد ساعده كل يوم ويفرض على الدول التزامات محددة تحول في كثير من الأحيان دون انخراطها في الحروب الخارجية، وبالتالي فإن أمر المشاركة في الحرب أصبح أكثر تعقيداً ولم يعد بإمكان الاستبداد تحريك الجيوش بالإرادة المنفردة للسلطة الحاكمة.

حق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة:

وفي هذا السياق أنقل لك طرفاً من دراسة خاصة أعددتها تحت عنوان: حق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة، وفيها نقدم أدلة من الشرع لتأكيد حق الإنسان في التمرد على الحرب، وتحريم إحبار الناس على خوض حروب لا يؤمنون بها ولو كانوا أفراداً في الحيش الوطني:

يؤسس هذا المقال لحق فريد من حقوق الإنسان طرحته في مؤتمر المجلس العالمي للدعوة والإغاثة الذي انعقد في القاهرة بمشاركة قادة دينيين من العالم الإسلامي والمسيحي وحقوقيين وخبراء من الأمم المتحدة ، وهو في الأصل طموح كبير آمل أن يجد صداه عند المهتمين بحقوق الإنسان.

إن حقوق الإنسان إنجاز إنساني مبارك سعى إليه الإنسان منذ كان الإنسان ، وتألق في أيام عظيمة في التاريخ بدءاً من حلف الفضول الذي شارك فيه النبي الكريم في دار عبد الله ببن جدعان إلى أن تم إعلانه في يوم سعيد هو العاشر من كانون الثاني عام 1948 حيث تبنت الأمم المتحدة إبان تأسيسها وثيقة إعلان حقوق الإنسان.

ومع أن الوثيقة جاءت ملبية لكثير من طموح الإنسان الذي عانى طويلاً من القهر والعسف والظلم، فإنه لا يصح النظر إليها على أنها نص معصوم، وهو كذلك، فالدراسات تتوالى في الإشارة إلى بعض مكامن النقص والضمور في تلك الوثيقة التاريخية ، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك هو قصور

تلك الوثيقة في الإشارة إلى حق الإنسان في مقاومة الاحتلال والقهر وهو ما أدى إلى اختلاط المفاهيم بين المقاومة والإرهاب ، وتمادي الغطرسة والمظالم في الأرض بحجة قمع الإرهاب، وكذلك التفريط الأكيد في الإشارة إلى حق الإنسان في أن يولد بين أبوين وينعم بربيع الأسرة الدافئ، وهو ما يقتضي تحريم الزنا وتجريمه.

المثال الذي نقدمه هنا هو جانب آخر من جوانب القصور في وثيقة حقوق الإنسان إذ لم تشر الوثيقة إلى حق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة إذ لا تشير القوانين العالمية إلى حق المقاتل في التمرد إذا ما كانت الحرب من وجهة نظره غير عادلة ، حيث يعامل الجندي المتمرد في سائر قوانين العالم معاملة واحدة من حيث النظر إليه على أنه متمرد فار من الزحف الأمر الذي جعل كثيراً من التشريعات تعامله على أساس أنه ارتكب الخيانة العظمى.

إن القوانين لا تحمي الجندي الذي يرى أنه قيادته السياسية خانته وأمرته بتوجيه بندقيته في غير وجهتها الصحيحة ، فالجندي الأمريكي مثلاً أقسم أن يحمي العلم الأمريكي ويدافع عن نجومه الخمسين المتمثلة في الولايات المنضمة انضماماً تاماً إلى أمريكا ، وهو في ذلك مخلص لمبدئه ، ولكنه يجد نفسه فجأة مدعواً للالتحاق بقوات المارينز (التدخل السريع) لضرب أفقر دولة في العالم دولة تبعد عن تراب بلاده أكثر من عشرة آلاف ميل ، وعليه أن يقصف بطائرته مواقع مدنية ومشافي وقرى ومدارس في حرب معلنة على الإرهاب ليس خافياً أن أهم أهدافها هو الانتقام للانتقام فحسب، والسيطرة على تلة أخرى من التلال الموصلة إلى المياه الدافئة ومراقبة المارد الآسيوي المتحفز، في قصد واضح لتأمين مرحلة أخرى إضافية من الاستعلاء الأمريكي.

إن القانون الأمريكي لا يحمي المقاتل الشريف الذي لم يقتنع بغايات هذه الحرب الظالمة التي تجهز الآن لتمتد إلى بلاد لا تختلف في شئ كثير عن أفغانستان في فقرها وضعفها كالصومال واليمن والعراق ، وكذلك الدول التي لا تزال تقول لا للكيان العبري الهجين المنزرع في قلب الشرق الأوسط.

محمد علي كلاي لم يقتنع بحرب أمريكا في فيتنام ، لم يكن يفهم لماذا يتعين عليه أن يمضي إلى آخر الأرض لتغليب فريق سياسي على آخر وفرض حكومة على الناس تنزل بالباراشوت وفق إرادة العم سام ، ومع أنه بطل العالم ولكن ذلك لم يشفع له بالمرة وقامت السلطات الأمريكية بتجريده من لقبه العالمي وملاحقته قانونياً وسجنه، إلى آخر المسلسل المعروف.

ماذا لو ملك المحارب حق التمرد على الحرب الظالمة؟

إن السؤال البدهي الذي يطرح نفسه هنا هو من الذي سيقرر طبيعة الحرب المقترحة أهي عادلة أم ظالمة؟؟ إن العدالة تقتضي أن يقرر ذلك صاحب المصلحة الحقيقية من قرار هذه الحرب وهو المقاتل الذي يدفع حياته ثمناً لهذه الحرب ، وهذا يقتضي أن يترك له الخيار أن يقرر طبيعة الحرب القادمة ، طبعاً من حق الدولة أن تمهد بالحملات الإعلانية غايتها ومبرراتها لنشوب الحرب ولكن

عندما لا تبلغ قناعات الناس فالمسألة إذن ليست على الوجه الذي يختاره آمر القوى الحربية إنها في المقام الأول قرار المقاتل نفسه الذي لا ينبغي أن يحمل إلى حرب ليس له فيها أرب ولا غاية!!

الصديق كامل الشريف أمين المجلس العالمي للدعوة والإغاثة قال لي: إذن سيقول المحارب دوماً أنا غير مقتنع بالحرب وسيحميه القانون وعند ذلك ستتوقف الحروب، وتتآكل حقوق الشعوب التي لن تجد من يدافع عنها ؟

قلت : أما توقف الحروب فهذا أمل لا أظن أنه يزعج أحدا بل هو غاية يتغياها الشرفاء، وأما حقوق الأمة فإن التربية العقائدية للمقاتل وعدالة القضية ستجعل من يستفتى في خيار الحرب بصيراً بالقرار الصائب الذي ينبغي اتخاذه في هذه الحال، ثم ما فائدة جيش من المنافقين يقاتل في حرب لا قناعة له بأهدافها وغاياتها؟؟

إن المقاتل العربي اليوم لو تم أخذ رأيه الصريح في الحرب مع الكيان الصهيوني إذا تم تحقيق التوازن الاستراتيجي فإن من الطبيعي أن ينادي بالحرب أفراد الجيوش العربية العقائدية، ولكن النتيجة ستكون مختلفة لو أتيح للمقاتل العراقي أن يقول رأيه قبل أن يؤمر بغزو الكويت على سبيل المثال.

عندما مضى النبي الكريم بجيشه الناشئ لمواجهة عير قريش في بدر سيرت قريش فجأة جيشاً قوامه ألف مقاتل لمواجهة المسلمين ، كانت المواجهة إذاً قدراً حتماً ومع ذلك فإن النبي الكريم لم يشأ أن يخوض الحرب إلا بعد أن قال عدة مرات: أشيروا علي أيها الناس!! ومع أن أبا بكر وعمر والمقداد أشاروا عليه بخوض الحرب ولكنه ظل يقول أشيروا علي أيها الناس! حتى قام سعد بن معاذ فقال : إنا قد آمنا بك واتبعناك، فامض لما أمرك الله، فوالدي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك!!. لقد كان يريد أن يستمع بشكل صريح إلى صوت أولئك الذين قد تراق دماؤهم في هذه الحرب ،إذ هم دون سواهم أصحاب المصلحة الحقيقية في إعلان الحرب والسلم ، ولذلك لم يكتف برأي المهاجرين الذين لا يبدو لهم أصلاً خيار غير المواجهة ولكنه أراد أن يستمع إلى رأي الأنصار الذين كانوا يملكون خيارات أخرى غير الحرب.

فهل تعكس الحروب التي تشتعل كل حين قراءة صحيحة لإرادة المشاركين فيها؟

عندما يعلم الديكتاتور أن قرار التمرد على الحرب حق من حقوق الإنسان تحميه الشرعة الدولية والوطنية فإنه سيعيد بلا ريب حساباته التي يمهد بها لإشعال الحرب وسيملك أن يقدر بشكل صحيح كم هو عدد جيشه بدقه فيما لو أراد الغزو شرقاً وكم سيكون عدده لو أنه قرر الغزو غرباً .

إن السعار المحموم الذي دفع الإدارة الأمريكية اليمينية مثلاً باتجاه إشعال الحرب ضد العراق لا يمكن أن يكون كذلك لو أتيح للمقاتل الحقيقي أن يقول كلمته في هذا الصراع، ثمة أمريكيون كثير انتسبوا بحماس إلى الجيش الأمريكي رغبة في حماية تراب بلادهم ولكنهم اكتشفوا أنفسهم على المدن العائمة المتوجهة إلى العراق بعد سبعة بحور وسبعين بلداً لقصف شعب آمن عانى من الجوع والاستبداد والحصار نحو عقدين من الزمن، ثم يفاجئ وهو في أم الحريات أنه ليس حراً في

أن يقتل ويقتل أو يكف عنهما وإنما عليه أن يلتزم بإرادة القيادته على الرغم من أنه لا يشعر بأي قناعة أو نبالة أو شرف في أهداف حكومته المعلنة دونما خجل على أنها السيطرة على مصالح أمريكا الحيوية.

متى ستقوم القوانين باقتراح الآلية المناسبة التي تجعل حق الجندي في المشاركة أو الامتناع في أي حرب حقاً مقدساً من حقوق الإنسان، لا تملك الدولة مصادرة رأي الفرد فيه ولا تملك حق إعلان الحرب على أحد إلا بقدر عدد الذين يوقعون على وثائق المشاركة في الحرب المقترحة ويتولى القانون حماية المتمرد الذي لم يقتنع بالهدف العبثي للحرب المقترحة؟

إن قرار المشاركة في الحرب هو المكافئ الموضوعي لقرار المشاركة في الموت، فكيف يمكن الحديث عن حقوق الإنسان إذا كان هذا الحق لا يزال غائباً أو غائماً يتولاه نيابة عن الناس أفراد أقوياء يجيدون القراءة في الخرائط ويملكون الحساسية المفرطة باتجاه توجيه أحجار الشطرنج إلى المياه الدافئة والأرض القادرة على تنمية ثرواتهم وكنوزهم ، وهم في الحجرات المكيفة المرفهة في قيادات الأركان تسلط عليهم الأضواء في العواصم الكبرى؟؟

هذه الفكرة لا تعدو أن تكون إلحاحاً على تجنيب الإنسان جزءاً من كوارث الاستبداد وسأكون سعيداً إذا أتيح لهذه الفكرة أن تناقش وتنتقد حتى تنضج أو تحترق!!

لقد قدمت هذه الدراسة في أول أيام الثورة السورية، ونشرتها الصحف السورية، وكانت في سياق رفض التدخل الأمريكي ولكنها أيضاً كانت واضحة تماماً في رفض الانخراط في سلوك الجيش والأمن في قتال الهاتفين للحرية من أبناء الشعب، وكانت واضحة في أنه ليس من حق حاكم أن يقرر القتال ضد شعبه مستقوياً بأفراد الجيش الوطني، لقد كانت أكبر خيانة لرسالة الجيش أن يتصوروا أنه أحجار على رقعة الشطرنج وأن يدفعوه إلى محارق ومقاتل باسم الدقاع عن الوطن، ولكن الآلاف من أبناء سوريا رفضوا المشاركة في هكذا حرب لئيمة، وألقوا السلاح على الأرض بدل من أن يوجهوه إلى صدور إخوتهم، ولو كان هذا الوعي أكثر انتشاراً لتوقفت هذه الحرب المجنونة من أيامها الأولى ولكن غياب الوعي بالحقوق والحريات، أو قل عدم نضج هذه الحقوق حتى في المجتمعات المتحضرة نفسها حال دون موقف الشجاعة المأمول من المحاربين ودفع إلى المزيد من التورط في القتال العبثي الذي لا تزال فيه سوريا تحترق حتى كتابة هذه السطور وآمل أن تكون النتيجة قد تغيرت عندما يقرأ الناس هذه السطور.

هل الحرب قدر الإنسانية اللازب؟؟ أما لها من آخر؟!

ثمة حروب كثيرة خاضها الناس بأعلى درجة من الحماس، وقدَّموا أرواحهم بسخاء فيها، كما لو كانت معراجًا لهم إلى نعيم الجنة! ثم بدا للحكماء بعد ذلك أن الحرب لم تكن مبرَّرة، وأن الغايات التي ابتغيناها من الحرب لم تكن على وفق إرادة المحاربين الكاسرة، وكان بالإمكان أن نعالج همومنا وقضايانا بثمن أهون من هذا، لا تضيع فيه الأرواح ولا تُزهَق فيه المُهَج.

لقد زرت السودان يوم كان ساحة حرب تغلي. وكان خيرة شباب السودان يندفعون إلى شاحنات هائجة تغلي بصيحات الجهاد ورغائب الجنة، ويتواثب فيها الأبناءُ البَرَرة إلى مقاعد القتال، وهم يردِّدون: "في سبيل الله قمنا نبتغي رفع اللواء"، إلى آخر أناشيد الجهاد الحماسية التي لا تنتهي. وكان الجنوب، بدوره، يحشد الآلاف من أبنائه تحت لواء القتال من أجل الحرية، وربما بشعارات دينية لا تقل هياجًا عن شعارات الشمال ورياياته!

يومذاك، كان الجنوب السوداني يشكِّل بوابة الجنة للراغبين في أسرع طريق إلى الفردوس! وكان اسم غرنغ، في ذهن كلِّ سوداني وعربي، يعني رمز الشر والكيد والكفر والغدر والمكر، بحيث كنتَ تختصر اسم إبليس وهامان وقارون وأبي جهل ونيرون وشمر بن ذي الجوشن وتيمورلنك وجنكيز خان وهولاكو وهتلر وشارون ونتنياهو بكلمة واحدة: غرنغ!

هكذا، على الأقل، ظلَّ المشهد لأكثر من اثنين وعشرين عامًا، لم تتوقف فيها رحى الحرب الطاحنة بين الشمال والجنوب.

فجأة ينصت السودانُ إلى صوت العقل، فيصغي الشمالُ إلى مَطالب الجنوب، ويصغي الجنوبُ إلى مَطالب الشمال، ويستفيق الكلُّ على حقيقة صادمة: إننا لم نكن نتَّجه إلى أيِّ مكان!

أي بؤس قاتل تصحو له بعدما يفنى على السير الزمانْ
حينمـــــا تعلم يومًـا أنه لم نكن نمشـي إلى أيِّ مكـانْ

كثيرون من شباب الكفاح الهائج، الذين قدَّموا أرواحهم وقودًا للحرب المجنونة، صاروا يصرخون بلا أسرار:

فإذن روحي التي أحرقتُها وشبابي وعذابي ودمي
وكفاحي وجراحي إثرها كان طيفًا من خيال واهِم؟

فجأة، يقف غرنغ إلى جوار عمر حسن أحمد البشير، يُقسِمان اليمين الدستورية على أن يكون الأول رئيسًا للسودان والآخر نائبًا أول له في أكبر موقعين في الوطن، لا يرقى إليهما في العادة إلا مَن كان أنظف الناس سِجِلاً وطنيًّا، وأكثرهم حرصًا على وحدة الأوطان، وأكثرهم غيرة على أهل السودان!

كنت أشعر حينذاك بشعور آلاف الأمهات اللاتي خسرن أبناءهن وفلذات أكبادهن وهنَّ يقاومن مدَّ غرنغ هذا، الذي كنَّ ينظرن إليه، من دون شك، على أنه مشروع "عولمي" شيطاني متوحش، مهمته ابتلاع الإسلام والعروبة والقضاء على الحقِّ والبرِّ والنور والخير، تذكرت الأبناء الذين ودَّعوا آباءهم وهم يركبون الشاحنات، يخرجون على أقدامهم مهلّلين، ويعودون في النعوش يهلَّل لهم، أو لا يعودون، ليجعلوا من جسومهم جسرًا يحول دون مشروع غرنغ المتوحش الهادف إلى القضاء على الإسلام والعروبة والسودان!

لم تكن لدى الأبناء والأمَّهات أية شكوك في كون جهادهم هذا ضرورة وطنية وحقيقة دينية ونضالاً إنسانيًّا، وأن سائر معاني النبل والطهارة والإخلاص تتجسد في التضحية لوقف قوة غرنغ وتمدده. وبالتأكيد، كان الشعور نفسه يخامر الجنوبيين. وحين دفعوا أيضًا آلاف الضحايا، كانوا يحسون أنهم يدافعون عن السودان وعن الفضيلة والقيم العليا في وجه المدِّ الأصولي المتطرِّف القادم من الشمال. وهناك آلاف مؤلَّفة من مسلمي الجنوب كانت تخوض الحرب للهدف ذاته الذي خاضه عربُ الشمال، وكانوا يرون جهادهم هذا في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، وليتم القضاء على عمر حسن أحمد البشير والترابي وغيرهم من الذين شوَّهوا الإسلام وقسَّموا السودان!

فأين تكمن الحقيقة في ذلك كلِّه؟! وأين هي "الحرب العادلة" التي يتطلع إليها الفريقان؟!

هل امتلك النظام الجديد الجرأة وقال: لقد كنَّا في ضلال مبين؟ لبجواب للأسف: لا، بل قالوا إن التضحيات العظيمة والدماء الزكيَّة الطاهرة هي التي أوصلتْنا إلى هذا النصر العظيم! وربما كانت هذه المجاملة الكاذبة أفضل الطُّرُق للتهرب من وجوه أمَّهات الشهداء وأبنائهم وإخوانهم، الذين صدَّقوا ذات يوم أن الدم وحده هو ما يصنع الأمن، وأن الحرب هي التي تصنع السلام!

وحتى هذه الساعة، فإن "الحرب العادلة" لا تعدو كونها مُكْرًا من الأقوياء. وبالإمكان القول بأن شرور الحرب كلَّها كان يمكن اجتنابُها لو بحث الطرفان عن مصالحهما بحيدة عن نزعات الاستعلاء والظلم والقهر. وهو ما تمكَّن العالم المتحضِّر اليوم من إنجازه: فهو عالم يتحكم بمصائر الأرض وثرواتها، ولكنه يحلُّ مشكلاته بالحوار والتفاوض. ولا تبدو الحروب اليوم بين الدول المتقدمة خيارًا واردًا لحلِّ مشكلاتها على الإطلاق. وقد تمكَّن دهاقنةُ الشرِّ من نقل غريزة الحرب إلى الدول المتخلِّفة، فيما هم يرتعون في نعيم الديموقراطيات!

لقد تمكَّنت أوروبا من تجاوز تاريخ معمَّد بالدم، فيه مئات الحروب الطاحنة، وثقافة من الكراهية تمتد إلى قرون متطاولة. وعلى أنقاض الأوهام، أقام الغرب آمالَ وحدته، وجمع أحلام هذه الشعوب

جميعًا على هيئة نجوم صغيرة تلتف حول دائرة أنيقة في علم أزرق يؤمن بالكلِّ، ويسعى إلى حلِّ المشكلات بالطُّرُق السلمية.

إن اللغز، كما عبَّر عنه جودت سعيد، يُختصَر بعبارة واحدة: حين قال هتلر: "ألمانيا فوق الجميع"، أشعل الحرب العالمية التي أكلتِ الأخضر واليابس؛ وحين غيَّر الألمان ظرف المكان وقالوا: "ألمانيا مثل الجميع"، تمكَّنوا من بناء الوحدة الأوروبية الشامخة التي يباهي بها العالم اليوم.

هل هناك حقًّا "حربٌ عادلة"؟ – خاصة في عصر السلاح الأعمى الذي لا يفرِّق بين الظالم والمظلوم، ولا بين الجلاد والضحية. ولا زلت، يومًا بعد يوم، أشك بأن هناك "حربًا عادلة"، وأقترب أكثر فأكثر من جودت سعيد، "الصوت الصارخ في البرية"، بأن لا وجود لـ"حرب عادلة"، خاصة في عصر الأسلحة العمياء التي لا تُبقي ولا تَذِر، وأن تطبيق قاعدة "العين بالعين" سيجعل الجميع عميانًا!

متنى سيتعلم الإنسان أن يقرأ أخاه الإنسان بعينين اثنتين، وأن يدرك تماماً أن كثيراً من الحروب هي قدر المحاربين أكثر مما هي قراراتهم، وأننا نكفر بعقولنا حين نتصور الضفة الأخرى بدون ضمير.

عن حذيفة بن اليمان قال:

كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة ان يدركنى، فقلت: يا رسول الله! انا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، فقلت هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال نعم وفيه دخن!

قلت: وما دخنه؟

قال قوم يستنون بغير سنتى ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر.

فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: نعم دعاة على ابواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها!

فقلت: يا رسول الله! صفهم لنا!

قال نعم هم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا

قلت يا رسول الله فما تأمرني ان أدركني ذلك؟ قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم!

قلت فان لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وانت على ذلك!

رواه البخاري ومسلم

رسالة الجهاد

من قتال الغزو والفتح إلى الجيش الوطني

.....

نحو جهاد بصير.... يرضاه الله ويحترمه العالم

تمهيد

الجهاد.... صدمة الواقع المرعبة

الجهاد في التطبيق النبوي:

- **تأسيس الجيش الإسلامي الأول**
- **تعزيز السلم ورفض الحرب في برنامج الرسول**
- **علاقة الأمة الإسلامية بالمجتمع الدولي**
- **دار الإسلام ودار الحرب**
- **آية السيف**
- **المستويات السبعة عشر في الجهاد**
- **معالم فقه الجهاد في الإسلام**
- **جهاد الدفع وجهاد الطلب**
- **الجهاد والفتنة**
- **أحكام الجهاد والصيال**
- **التكفير وهدر الدم**
- **من فتاوى التكفير**

- **الجهاد والفتوح... تبرر ولا تكرر**
- **جهود الخلفاء الراشدين في تطوير فقه الجهاد:**

الجهاد اليوم

- **السلفية الجهادية مصدر التشدد في تفسير الجهاد**
- **الحركات الجهادية في القرن العشرين**
- **الحركات الجهادية في القرن الجديد**
- **الاستبداد... واستدعاء النموذج الجهادي**

من جهاد الغزو إلى جهاد الجيش الوطني

- **الجهاد والجيش الوطني.... تشويه مزدوج**
- **الاتصال والانفصال بين الجهادي والوطني**
- **الجهاد اليوم.... جهاد رسول الله**
-

نهاية عصر الحرب وبدء عصر الإنسان

- **العالم يتخلى عن الحرب**
- **حق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة:**
- **هل الحرب قدر الإنسانية اللازب؟؟ أما لها من آخر؟!**